الفصل الثانى

تطور الشعر الأموى مع الحياة

١

الحياة الدينية

كان عرب الجاهلية فى أكثر أنحاء الجزيرةالعربية وثنيين ماديين ، لا يهمهم من الحياة سوى المُتَع الحسية، فلما جاء الإسلام أضاء قلوبهم بمثاليَّة روحية كريمة ، تقوم على نَبْذ الحياة الدنسة القديمة إلى حياة طاهرة جديدة ، كلها عبادة ،وتبتُّل إلى الله ، وتوسل إليه ،ومجاهدة للنفس ، حتى ترفض عَرَضَ الدنيا وتطلب ثواب الآخرة .

وقد حضَّ القرآن الكريم فى غير موضع على التقوى ، فقال جل شأنه : (إنما يتقبَّل الله من المتقين) كما حضَّ على ذكر الله وتسبيحه، فقال جَلَّ وعز : (يا أيها الذين آمنوا اذكروا الله ذكرًا كثيرًا وسَبِّحوه بكرة وأصيلا) . وقال تعالى : (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكرُ الله أكبر) .

وبجانب ذلك نجد دعوة إلى التوكل على الله حق التوكل من مثل قوله تعالى : (وعليه فليتوكل المتوكلون) كما نجد دعوة إلى الزهد فى متاع الدنيا ومغانمها من مثل قوله عز وجَلَّ : (فعند الله مغانمُ كثيرة) . وصور الذكر الحكيم تصويرًا رائعًا نعيم الجنة التى أعِدَّتْ للمتقين ، وعذاب النار التى أعدت للعاصين . وفى الوقت نفسه حَثَّ القرآن الكريم فى غير موضع على الخلوص لله والاستسلام له والانقياد إليه، فهو ذو السلطان غير المحدود ، وهو أيضًا غفور رحيم: (كتب على نفسه الرحمةَ) (ورَحْمتى وَسِعَتْ كلَّ شىء) .

ودائمًا نجد إشارات وتوجيهات إلى العمل الصالح وأن الفائزين برضوان الله هم : (التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون

بالمعروف والنَّاهون عن المنكر) وكذلك الفائزات (مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات) وكلمة سائحين وسائحات قد تُفيد الرحلة عن الدنيا ومُتَعها .

وهذا كله صرَف كثيرًا من المسلمين الأولين إلى الزهد فى حُطَام الدنيا وأكَّد لهم الحديث النبوى ذلك ، من مثل ما يُرْوَى من أن رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : « دُلَّنى على عمل إذا أنا عملته أحَبَّنى الله وأحبَّنى الناس ، قال : ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدى الناس يحبك الناس[1] » .

فاندفع كثير من الصحابة فى حياة ناسكة ، كلها تقوى ، وعبادة ، ورَفْض لزخْرُف الدنيا وتقشُّف ، وابتهال إلى الله ، وتوكل عليه ، وانتظار لما عنده . ومن هؤلاء الصحابة مُعَاذ بن جَبَل ، وأبو بكر ، وعلى ، وعمر الذى كان يقول : اسْتَغْزِروا الدموع بالتذكر[2] . وكان ابنه عبد الله من كبار الزهاد ، ورسَم ابنُ سعد لزهده فى طبقاته صورة طريفة ، فقال : إنه كان يترك الحمَّام يعدُّه من رقيق العيش ، وكان لا يلبس الخزَّ ، ولا يشرب فى أقداح مفضَّضة ولا من زجاج ، إنما كان يشرب فى أقداح من عيدان[3] . ومثله كان عبد الله بن عمرو بن العاص ، إذ يُجمع الرواة على أنه كان شديد المجاهدة لنفسه ، فكان يَقْضى الليل مصليًا والنهار صائمًا[4] .

ومن الصحابة الأولين الذين اشتهروا بالعبادة والزهد حُذيفة بن اليَمان ، وأبو الدرداء الذى يُرْوَى عنه فى الزهد عبارات مأثورة من مثل قوله : « أضحكنى ثلاث وأبكانى ثلاث ، أضحكنى مؤمل الدنيا والموت يطلبه ، وغافل ولا يُغفل عنه ، وضاحك مِلْءَ فيه ، ولا يَدرى ساخط ربه أم راض . وأبكانى هول المطَّلَع ، وانقطاع العمل ، وموقفى بين يدى الله لا يُدْرَى أيُؤمَرُ بى إلى الجنة أم إلى النار[5] » وكذلك كان سالم مولى أبى حُذيفة الذى يقول فيه عمر : « إن سالمًا كان شديد الحب لله[6] » .

---

(١) البيان والتبيين ٣/١٦٦ .
(٢) نفس المصدر ٣/١٤٩ .
(٣) انظر ترجمته فى طبقات ابن سعد ج ٤ ق ١ ص ١٠٥ وما بعدها .
(٤) ابن سعد ج ٤ ق ٢ ص ٩ وما بعدها .
(٥) بيان ٣/١٥١ .
(٦) بيان ٣/١٥٠ .

وشهرة أبى ذَرّ الغفارى فى هذا الباب ذائعة ، فقد ثار على معاوية ، وهو وال بالشام لعثمان بن عفان ، حين رآه يستأثر بالفَيْء[١] ويبيح للناس ، تبعًا لسياسة عثمان ، أن يمتلكوا الضِّياع . وجادل معاوية فى ذلك ، واحتج عليه بقوله تعالى : (والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) . واستمر فى ثورته ، فرفع معاوية أمره إلى عثمان ، فرسَم بإشخاصه إلى المدينة . فلما ذهب هناك ثار ثانية حين رأى بعض الصحابة يَقْتَنون الدور والقصور ، فنفاه عثمان إلى قرية مجاورة للمدينة تسمى الرَّبَذَة . ويُرْوَى عنه أنه قال : « فارقت رسول الله صلى الله عليه وسلم وقوتى من الجمعة إلى الجمعة مُدٌّ ، ولا والله لا أزداد عليه حتى ألقاه » ، وكان يقول : « إنما مالك لك ، أو للجائحة ، أو للوارث ، فاغْنَ ، ولا تكن أعجز الثلاثة[٢] » .

وعلى هذا النحو انتشرت موجة النسك فى صدور كثير من الصحابة الذين رافقوا زاهد الأمة وعابدها الأول : رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وانتشر معها كثير من المجاهدات والرياضات ، وخاصة فى الصوم والصلاة[٣] : ووصف هذه الطائفةَ الحسنُ البصرى فقال : « أدركت من صدور هذه الأمة قومًا كانوا إذا جَنَّهم الليل فقيامٌ على أطرافهم ، يفترشون وجوههم ، تجرى دموعهم على خدودهم ، يناجون مولاهم فى فكاك رقابهم[٤] » : ولا ريب فى أن هذه الطائفة هى مقدمة طوائف البكّائين الذين نسمع بهم فيما بعد .

ولعل فى ذلك كله ما يدل دلالة قاطعة على أن الزهد نشأ نشأة إسلامية خالصة ، فقد دعا إليه القرآن الكريم ودعت إليه السنة النبوية . على أننا لا نتقدم إلى عهد الفتوح حتى تدخل فيه عناصر أجنبية ، على رأسها عناصر مسيحية ، من تلك التى كانت فى العراق والشام ومصر . وحركة الرهبنة فى المسيحية وما يتصل بها من زهد معروفة ، وقد كان لها أثرها فى هذه النزعة ، لا فى وجودها ولا فى تنشئتها ، ولكن فى نموّها من بعض الوجوه .

---

(١) الفيء : غنائم الحرب .
(٢) بيان ٣/١٩١ .
(٣) بيان ٣/١٥٦ .
(٤) بيان ٣/١٣٦ .

ولعل من الطريف أن نجد لعهد عثمان شخصًا يُحَرِّم الزواج واللَّحْم على نفسه ، وهو عامر بن عبد قيس ، زاهد البصرة وناسكها[١] . ونهج نهجه فى عهد عمر بن عبد العزيز ناسكُ المدينة المشهور زياد[٢] بن أبى زياد أحد موالى بنى مخزوم . وكان كثير من هؤلاء الزهاد يُلَقَّب بالراهب لكثرة عبادته وصلاته[٣] . وقد لُقِّب عبد الرحمن بن أبى عمَّار الجُشَمىّ المكىُّ بالقَسّ لعبادته ، وكثرة تبتله إلى الله[٤] .

واستمرت صور المجاهدات والرياضات للنفس فى أشكال مختلفة ، فكان بعضهم يُكثر من الصلاة ، حتى ليصلى ألف ركعة فى اليوم[٥] ، واشتهر محمد بن طلحة ابن عُبَيْد الله بأنه كان يسجد فيُطيل فى سجوده ، حتى إن العصافير لتسقط على ظهره تحسبه حائطًا[٦] . وفى طبقات ابن سعد أن مِعْضَد بن يزيد العِجْلىّ أحد عُبَّاد الكوفة كان يخرج فى جماعة إلى الجَبَّانة يتعبدون[٧] . وكانت تزداد هذه المجاهدات حين يصنع بعضهم ذنبًا يندم عليه ، فقد ارتكب أبو لُبَابة معصية ، فربط نفسه إلى عمود فى مسجد المدينة . وبقى مدة على هذه الحال حتى ظَنّ أن الله غفر له[٨] ، ويُرْوَى عن الزُّهْرى أن ذنبًا فرَط منه ، فهام على وجهه ، خوفًا من ربه[٩] .

ومن المجاهدات التى نقرؤها كثيرًا الحجُّ إلى مكة لا على الإبل ، وإنما مشيًا على الأقدام ، ويُرْوَى أن على بن الحسين الملقَّب بزين العابدين حَجَّ خمسًا وعشرين حِجَّة راجلا[١٠] وعلى هذه الشاكلة أخذ الزهد يتحول فى كثير من الصور إلى ضروب مختلفة من المشقة وتعذيب النفس وإعناتها طلبًا لما عند الله من الثواب ، وخوفًا مما أعدَّه من العقاب .

وكل مَنْ يدرس هذه الموجة من الزهد ويتعقبها فى الأقاليم الإسلامية فى أثناء عصر بنى أمية يستطيع أن يلاحظ فى وضوح أن أهم إقليم انتشرت فيه هذه الموجة هو

---

(١) أسد الغابة ٣/ ٨٨ .
(٢) ابن سعد ٥/ ٢٢٥ .
(٣) ابن سعد ٥/ ١٥٣ وانظر ج ٧ ق ١ ص ٧٣ .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ٨/ ٣٣٤ .
(٥) أغانى ١/ ٢٧٧ والبيان والتبيين ٣/ ١٢٩ .
(٦) الحيوان للجاحظ (طبعة الحلبى) ٥/ ٢٣٨
(٧) ابن سعد ٦/ ١١١ .
(٨) هذه الحادثة كانت على عهد الرسول ، انظر أسد الغابة ٥/ ٢٨٤ .
(٩) بيان ٣/ ١٦٨
(١٠) العقد الفريد ١/ ٣٦٦ .

إقليم العراق وقد تأثر فيها بعناصر أجنبية ، إذ نرى قَتَادَة أحدَ زهاده ينقل عن التوراة[١] كما نرى الشَّعْبى أحد عُبَّاده ينقل عن عيسى بن مريم عليه السلام[٢] وقد يكون ذلك لاتصال العراق بالرهبنة المسيحية ، ومع ذلك فلم يكن أكثر صلة بها من الشام ومصر ، فلا بد من أسباب أخرى دفعت أهله إلى اعتناق هذا الزهد والمبالغة فيه . وأكبر الظن أن الحروب الداخلية الطويلة التى استمرت هناك طوال عصر بنى أمية هى التى أعدت لذلك ، فإن بعض من خَسِروا هذه الحروب ولم يستطيعوا اقتناص الدنيا من أيدى الأمويين تحولوا إلى الزهد فيها ، ووضعو أمانيَّهم فى الآخرة وما وعد الله به عباده المتقين . ولا ريب فى أنه كان لظلم ولاة بنى أمية وتعسفهم مع العراقيين أثر فى ذلك ، ويكفى أن نعرف أن الحجاج قَتَل — فيما يقال — صَبْرًا وغيلة ، مائة ألف وعشرين[٣] . وغيره من ولاة العراق مثل خالد القَسْرى ويوسف بن عمر لم يبلغوا فى القتل مبلغه ، ولكنهم كانوا أيضًا قساة ظالمين . ولم يكن لدى الناس أمام هذا الظلم وتلك القسوة وما استولى على نفوسهم من فزع وخوف إلا أن يعتصموا بحَبْل الله وينصرفوا عن متاع الدنيا إلى متاع الآخرة .

ومعنى ذلك أن عوامل مختلفة هيأت لاتساع موجة الزهد فى العراق . وإن من يقرأ الجاحظ فى بيانه وهو يعدد أسماء زهَّاد الكوفة والبصرة ويطيل فى تَعْدَادهم ويفتح الفصول الخاصة لذكرهم والنقل عنهم يُخَيَّل إليه أن زهاد العصر الأموى كلهم كانوا منبثِّين فى العراق . ولا شك فى أن الزهد كان له أصحابه فى الحجاز ، كما كان له أصحابه فى الشام ومصر ، ولكن العراق هى التى سَبَقَت فيه للأسباب التى ذكرناها ، فقد اندفع كثيرون هناك إلى العبادة والنُّسُك ، وعُرف جمهورهم باسم القُرَّاء . والكلمة أُخِذَتْ أولاً من قراءة القرآن ثم أصبحت تطلق على هؤلاء الذين أخلصوا أنفسهم لله ، فتقشفوا وتنسَّكوا وعاشوا معيشة زاهدة ، بل معيشة تقوم على المجاهدة ورياضة النفس .

---

(١) بيان ١/١٠٤ .

(٢) بيان ١/٢٩٧ .

(٣) ابن عبد ربه ٣/٢١ وانظر الطبرى ٢/١١٢٣

ومن أشهر زهاد الكوفة[1] علقمة بن قيس ويصفونه بأنه كان من الربَّانيين[2] وابن أخيه الأسود بن يزيد ، ويقولون إنه كان صوَّاما قوَّاما[3] ، وعمرو بن عُتْبة ابن فرْقد وكان من البكَّائين[4] ، والربيع بن خُثَيْم ، ويقولون إنهم لم يسمعوه يذكر شيئًا قط من الدنيا[5] ، وهمام بن الحارث النَّخَعي وكان يقول : « اللهم اكْفني من نوى بيسير ، واجعل سهرى فى طاعتك ، فكان لا ينام إلاَّ هُنَيْهة وهو قاعد[6] » وأويْس القَرَنى وكان من البكَّائين ، وكان يتحرَّج أن يُحَدِّث أو يَقُصّ أو يُفْتِى[7] .

ومن أشهر قراء البصرة ونُسَّاكها[8] صلة بن أشْيَم ، وكان يصلى حتى لا يستطيع أن يأتى فراشه إلا زحفًا[9] ، ومُطَرِّف بن عبد الله بن الشخِّير ، وكان يقول لأهل البصرة : « لا تنظروا إلى خَفَض عيشهم (بنى أمية) ولين لباسهم ، ولكن انظروا إلى سرعة ظَعَنهم ، وسوء منقلبهم[10] » ومورِّق العِجْلى ، وكان يقول : « ضاحك معترف بذنبه خير من باك مدلٌ على ربه[11] » ، وبكر بن عبد الله المُزَنى ، وكان يقول : « الدنيا ما مضى منها فحلم ، وما بقى منها فأمانىّ[12] » ، ويزيد بن أبان الرَّقاشِي الواعظ البكَّاء ، ويُرْوَى أنه تمنى قوم فى مجلسه ، وقالوا تمنَّ ، فقال : « ليتنا لم نُخْلَق ، وليتنا إذ متنا لم نبعث ، وليتنا إذ بُعثنا لم نحاسَب ، وليتنا إذ حوسبنا لم نعذَّب ، وليتنا إذ عُذبنا لم نخلَّد[13] » .

وواضح من أقوال هؤلاء الزهاد والنساك أنهم لم يملئوا أجواءهم بعبادتهم وتقشفهم فحسب ، بل ملأوها أيضًا بمواعظهم وإرشاداتهم وتوجيهاتهم . وقد اشتهر فى المدينة أبو حازم الأعرج ومحمد بن كعب القُرَظى واعظ عمر بن عبد العزيز ، واشتهر فى العراق الشَّعْبى واعظ الكوفة .

---

(١) انظر البيان ١/٣٦٣ ، ٣/١٩٣ .
(٢) ابن سعد ٦/٦١ .
(٣) البيان ٣/١٥٩ .
(٤) ابن سعد ٦/١٤٣ .
(٥) ابن سعد ٦/١٢٧ .
(٦) ابن سعد ٦/٨١ .
(٧) ابن سعد ٦/١١٤ .
(٨) البيان ١/٣٦٣ ، ٣/١٩٣ .
(٩) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ٩٩ .
(١٠) البيان ٣/١٥٢ .
(١١) البيان ٣/١٥٨ .
(١٢) البيان ٣/١٥٢ .
(١٣) البيان ٣/١٥٩ .

وواعظ العراق غير مدافَع الحسنُ البصرى ، ومواعظه منثورة فى البيان والتبيين ، وكلها تَنْعَى على ابن آدم نسيانه لربه وآخرته ، وما أعدَّ له الله من ثواب وعقاب . ويحسُّ الإنسان فى مواعظه دائمًا بالرجفة والفزع من العذاب ، وكأنه يرى بعينه الجحيم ، وهو يخلط ذلك بالدعوة إلى الزهد فى حُطام الدنيا ، والتقرب إلى الله بالعبادة والنسك والمحبة . ويُرْوَى عنه أنه كان يقول : « ليس الإيمان بالتحلِّى ولا التمنى ، ولكن ما وقَر فى القلوب وصدَّقته الأعمال[1] » . ومن قوله أيضاً : « مثقال ذرة من الورع خير من ألف مثقال من الصوم والصلاة[2] » .

ويظهر من نصوص هذا العصر أن فريقًا من زهاده كانوا يلبسون الملابس الخشنة وخاصة الصوف[3] وكان ذلك لا يعجب الحسَنَ ، فكان يقول : « أكنُّوا الكبر فى قلوبهم ، وأظهروا التواضع فى لباسهم[4] » . وكان يقرأ القرآن ويبكى حتى يتحدَّر الدمع على لحيته[5] .

ولم تقف هذه الموجة عند الرجال بل تعدَّتهم إلى النساء ، وقد عَدَّ منهم الجاحظ رَابِعَة القيسية ، ومُعاذة العدَوية امرأة صِلَة بن أشْيَم ، ومن نساء الخوارج البَلْجَاء وغَزَالة وقَطام وحمَّادة وكُحَيْلة ، ومن نساء الغالية ليلى الناعظيَّة وصَدوف وهند[6] .

وإنما استطردنا كل هذا الاستطراد فى بيان هذه الموجة الدينية من الزهد والتقشف والنُّسُك والتعبد ، لندلَّ فى وضوح على أن شعراء عصر بنى أمية نبتوا فى جو جديد فيه روحية ومثالية ، وفيه إيمان بعالم آخر فوق حِسِّهم وشعورهم ، وأن هناك علة نهائية تُدَبِّر هذا الكون ، وتَعْنُو لها وجوه البشر ورقابهم .

وهذا كله طَبَع نفسية كثير من الشعراء فى العصر الأموى بطوابع جديدة لم تكن مألوفة فى العصر الجاهلى ، عصر الوثنية ، لسبب بسيط وهو أن الشعر تعبير

---

(١) البيان ٣ / ١٤٤ .
(٢) رسالة القشيرى (طبع مصر سنة ١٣١٩هـ) ص ٥٩ .
(٣) ابن سعد ٨ / ٣٤٨ وكذلك ج ٤ ق ١ ص ٨٠ .
(٤) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١٢٣ .
(٥) نفس المصدر ص ١٢٧ .
(٦) البيان ١ / ٣٦٤ .

النفس ، وهو يتأثر بكل ما يؤثر فى النفس من ظروف طبيعية : مادية ، أو روحية معنوية .

فالشعر الأموى كُتِب فى ظلال نفسية جديدة آمنت بربها ، واستشعرت حياة تقيَّة صالحة ، فيها نسك وعبادة ، وفيها تقوى وزهد . وليس معنى ذلك أن كل الشعراء كانوا ناسكين زاهدين ، وإنما معناه أن الحياة الروحية الجديدة لم تنفصل عن حياتهم الفنية ، بل أثرت فى كثير من جوانبها وطوَّرتها ، وظهر هذا التطور فى صور مختلفة . ويكفى أن نتصفح ديوان شاعر كالفرزدق الذى اشتهر بفسقه واستهتاره لنعرف أنه لم ينفصل من الإسلام وأنه تأثر به ، فقد حضَر هو والحسن البصرى جنازة زوجه النَّوَار ، فقال له الحسن وهو بإزاء القبر : « ماذا أعددتَ لهذا المضجع ؟ قال شهادة أن لا إله إلا الله منذ ثمانين سنة ، فقال له الحسن هذا العمود فأين الطُّنُب ؟ فقال فى الحال :

أخافُ وراء القبر إن لم يُعافنى ... أشدَّ من القبر التهابًا وأضيقا
إذا جاءنى يوم القيامة قائدٌ ... عَنِيفٌ وسوَّاقٌ يسوق الفرزدقا
لقد خاب من أولاد دارِمَ [1] من مشى ... إلى النار مغلول القلادة مُوثقا
يُقَاد إلى نار الجحيم مُسَرْبَلاً ... سرابيلَ قِطْرانٍ لباسًا محرّقا [2] »

فالفرزدق المستهتر لم يكن الإسلام بعيدًا عن نفسه ، بل كان يعمل فى سريرته . وسنرى حين ندرس مدائحه أنه كان يمدح بعناصر إسلامية كثيرة ، ويُرْوَى أنه قيَّد نفسه ، وآلى أن لا ينْزِع القيد من رجله حتى يحفظ القرآن [3] . ولعل من الطريف أن نجد فى ديوانه قصيدة يهجو فيها إبليس ، ومن قوله فيها [4] :

ألم تَرَنى عاهدتُ ربى وإننى ... لبين رِتاجٍ قائمًا ومقامِ
على قَسَمٍ لا أشتم الدهرَ مسلمًا ... ولا خارجًا من فِىّ سوءُ كلام
أطَعْتُكَ يا إبليسُ سبعين حِجَّةً ... فلما انتهى شَيْبِى وتَمَّ تَمامى

---

(١) هم قومه من تميم .
(٢) ديوان الفرزدق (طبعة الصاوى) ص ٥٧٧ ، وانظر أمالى المرتضى (طبع عيسى الحلبى) ١/٦٥ .
(٣) أمالى المرتضى ١/٦٣ .
(٤) الديوان ص ٧٦٩ .

فررْتُ إلى ربى وأيقنتُ أننى ... مُــلاقٍ لأيَّام المَنون حِمَامى
ألا طالما قد بتُّ يُوضع ناقتى ... أبو الجِنِّ إبليسٌ بغــير خِطام
يظلّ يمنّينى على الرَّحْل فاركًا ... يكون ورائى مــرَّةً وأمــامى
يبشّــرنى أنْ لن أمــوت وأنه ... سَيُخْلِدُنى فى جنَّةٍ وسَلام
فقلتُ له هلاَّ أُخيَّك أخرجَتْ ... يمينُك من خُضْر البحور طَوامِ[١]
رميتَ به فى اليمّ لما رأيتَــهُ ... كفِرْقة طَوْدٍ يَذْبُل وشَمَام
فلما تلاقى فوقه الموجُ طاميًــا ... نكصْت ولم تَحْتَمِلْ له بمرام
ألم تأت أهلَ الحِجْرِ ، والحجرُ أهله ... بأنعمِ عيش فى بيوتِ رُخام[٢]
فقلت : اعقِروا هذى اللَّقُوحَ فإنها ... لكم أو تُنيخوها لَقُوحُ غَرَامِ
فلما أناخــوها تبَرَّأتَ منهمُ ... وكنت نَكُوصًا عند كل ذمــام
وآدم قد أخرجتــه وهْو ساكنٌ ... وزوجتَــه من خير دار مُقَام
وكم من قرونٍ قد أطاعوك أصبحــوا ... أحاديثَ كانوا فى ظلال غَمَام
وما أنت يا إبليسُ بالمرء أبتغى ... رضــاهُ ولا يقتــادُنى بزمام
سأجزيك من سوآت ما كنت سُقْتَنى ... إليــه جروحًا فيك ذاتِ كلام

وعلى هذا النمط يسترسل الفرزدق فى هجاء إبليس معبرًا عن نزعة دينية كانت تشتمل عليها نفسه ، ومستعيرًا من القرآن الكريم بعض قصصه ليُحكم هذا الهجاء .

وما من ريب فى أننا كلما أنعمنا النظر فى ديوان شاعر أموى وجدنا هذا الجانب الدينى الجديد فى صور مختلفة . وإذا كان الفرزدق على استهتاره ، الذى شُهِر به ، يتأثر هذا التأثر بالإسلام فى شعره فأولى بغيره أن يكون تأثُّرُهم أعمق وأحدّ ، وخاصة من عُرفوا بالعفاف والتديُّن ، فخصمه جرير التقىّ العفيف نجد فى شعره مظاهر كثيرة لتدينه وعفته سنعرض لها فى غير هذا الموضع ، ويُرْوَى عنه أنه كان يبكى حين تمرُّ به الجنائز ، ويقول : « أحرقتنى هذه الجنائز » وله ، فى زوجه أم حَزْرة ، رثاء مشهور ، يقول فيه[٣] :

---

(١) لعله يشير إلى قصة فرعون وغرقه المشهورة فى القرآن الكريم أو لعله يشير إلى قصة ابن نوح التى وردت فى سورة هود ، آية ٤٣ وما بعدها .

(٢) الحجر : ديار ثمود .

(٣) ديوان جرير (طبعة الصاوى) ص٢٠١

صلَّى الملائكةُ الذين تُخُيِّروا والطيِّبون عليكِ والأبـرارُ

وسنرى حين نعرض لمدائحه أنها كانت تستمد من العناصر الإسلامية ، وكذلك كانت أهاجيه مع الأخطل المسيحى ، ومع الفرزدق الذى يرميه دائمًا بالفسق والمجون .

ومعنى ذلك أن الحياة الدينية طـوَّرت الشعر الأموى وأثرت أثرًا عميقًا فى نفوس الشعراء ، وأصبح من غير الممكن أن ينظموا شعرًا لا تتضح فيه عناصر هذه الحياة ، ومن أهم ما كان من ذلك أنهم أصبحوا لا يمدحون أحدًا ولا يهجون أحدًا إلا وضعوا الصفات الدينية إيجاباً وسلبًا فى مديحهم وهجائهم . واستمعْ إلى كُثَيِّر يمدح عمر عبدالعزيز[1] :

وصدَّقتَ بالفعل المقالَ مع الذى أتيتَ فأمسى راضيًا كلُّ مسلمِ
وقد لبستْ لِبْسَ الهَلُوك ثيابها تَراءَى لك الدنيا بكفٍّ ومِعْصمِ
وتومضُ أحيانًا بعينٍ مريضــةٍ وتبسِمُ عن مثل الجُمَان المنظَّمِ
فأعرضْتَ عنها مشمئزًّا كأنمــا سَقَتْكَ مَدُوفًا من سِمامٍ وعَلْقمِ
تركت الذى يَفْنَى وإن كان مُونِقًا وآثَرْتَ ما يبقى برأيٍ مصمِّمِ
وأضررْتَ بالفانى وشَمَّرْتَ للذى أمامك فى يومٍ من الشرِّ مُظْلمِ

فهو يمدح عمر بانصرافه عن الدنيا مع تعرُّضها له ، ويقول إنه زاهد فى ملذاتها وثمارها الفانية ، لأنه يريد الثمرة الباقية من ربه ، يريد رضوانه وفردوسه . وغيرُ الخلفاء من الولاة والعمال كان الشعراء يمدحونهم أيضًا بهذه العناصر الدينية وما يشبهها من مثل قول ابن قَيْس الرُّقيَّات فى مصعب بن الزبير والى العراق لأخيه عبد الله[2] :

إنمــا مُصْعَبٌ شهــابٌ من اللّـ ـه تجلَّتْ عن وجهه الظلماءُ
ملكُهُ ملك قوّةٍ ليس فيـــهِ جـبروتٌ ولا بـــهِ كبرياءُ

(١) ديوان كثير (طبع الجزائر) ٢/١٢٣.

(٢) ديوان ابن قيس (طبع بيروت) ص ٩١.

يتّقى الله فى الأمور وقد أفـ ... لح من كان همّه الاتقاءُ

فهو يجعل مصعبًا قبسًا من نور الله ، ويقول إنه مسلم أشد ما يكون الإسلام ففيه تقوى وصلاح ، وحكمه فيه تواضع وانقياد لله .

وبصورة مباينة لهذه الصورة الدينية كان الشعراء يتهاجون ويهجون الناس ، إذ كان الهجاءُ بالدين أقذعَ صور الهجاء ، واستمعْ إلى قول الطِّرِمَّاح يهجو تميمًا وينصر قومه الأزْد[1] :

لو حان وِرْدُ تميمٍ ثم قيل لها ... حوْضُ الرسول عليه الأزْدُ لم تَرِدِ

أو أنزل الله وحْيًا أن يُعذِّبها ... إن لم تَعُدْ لقتال الأزْدِ لم تَعُدِ

فهو يقول إن تميمًا تَهْلَع من الأزد ، حتى لو كان لها وِرْدٌ إلى الماء ، وعلمت أنها تَرِد على حوض الرسول ، ثم عرفت أن هناك الأزد لرجعت إلى نفسها ، يقودها الخوف والفزع ، وأقامت على العطش والظمأ . وهو بذلك يرميها بالجبن وضعف الإيمان بالإسلام وصاحب رسالته . ثم عاد فذكر هذا الفزع فى صورة أخرى ، فلو أن وحيًا نزل من عند الله ، وفيه يأمر تميمًا بقتال الأزد بعد نكوصها ، وأنها إن لم تفعل حق عليها العذاب ، لو أن ذلك حدث ما عادت إلى هذا القتال .

وعلى نحو ما أثّر الإسلام فى المديح والهجاء أثر فى الغزل ، بل لعل تأثيره فيه كان أوسع ، فقد ظهر فى نجد ضرب جديد من الغزل العذرى الطاهر العفيف ، كما تسربت إلى نفوس أصحابه فى نجد وغير نجد غير قليل من المشاعر الدينية لا من حيث تصفية النفوس من أدْرانها ، بل أيضًا من حيث الألفاظ والأساليب ، فقد أخذوا يستخدمون بعض المعانى والألفاظ الإسلامية كى يؤثروا فى قلوب من يحبونهن ، من مثل قتل النفس المحرمة ومثل الذنب والظلم والغفران ، يقول ابن أبى ربيعة[2] :

---

(١) ديوان الطرماح (نشر كرنكو) ص ١٤٥ .

(٢) انظر الديوان ، القصيدة رقم ٣٤٣ .

ألا يا مَنْ أحبُّ بكلِّ نفسي ومَنْ هو من جميع الناس حَسْبي
ومن يظلمْ فأغفره جميعًا ومن هو لا يهمّ بغَفْر ذنْبي

ويقول جميل[١] :

ألا تتقين الله فيمن قتلتِه فأمسى إليكم خاشعًا يتضرَّع

ويقول كثيِّر[٢] :

ولا تيأسا أن يمحوَ الله عنكما ذنوبًا إذا صَلَّيتما حيث صلَّتِ

ويقول مجنون ليلى[٣] :

عفا الله عن ليلى الغداةَ فإنها إذا وَليتْ حُكْمًا عليَّ تجورُ

وتكثر مثل هذه الألفاظ عند الغزلين جميعًا

وعلى هذا النمط تطورت جوانب كثيرة من صور المديح والهجاء والغزل القديمة تحت تأثير الروحية الإسلامية الجديدة . وسنرى حين نعرض للحياة السياسية أن شعراء الأحزاب المختلفة كانوا يهتمون اهتمامًا شديدًا فى مدائحهم وأهاجيهم بالعناصر الدينية ، وهذا كله طبيعى فقد تغيرت نفسية القوم تحت تأثير الإسلام وتَغَيَّر مثلهم الأعلى فى الفضائل والأخلاق ، وكان النساك والوعاظ ما يزالون يؤثرون فيهم وفى نفسياتهم . ولذلك كنا لا نبالغ إذا زعمنا أن كثيرًا من صفحات الشعر الأموى طُبِع بطابع دينى ، واستمعْ إلى قول الطِّرِمَّاح[٤] :

كلُّ حيٍّ مستكملٌ عدَّة العُمْـ ـرِ ومودٍ إذا انقضى عَدَدُهْ
عجبًا ما عجبتُ للجامع الما لَ يُباهى به ويَرْتَفِدُهْ
ويُضيعِ الذى يصيِّره اللـ ـهُ إليه فليس يعتقده
يومَ لا ينفع المخوّلَ ذا الثر وة خُلَّانُه ولا ولَدُهْ
يوم يُؤْتَى به وخصماه وسْط الْـ ـجنِّ والإنس رجلُهُ ويدُهْ

---

(١) انظر ديوان جميل (نشر مكتبة مصر) ص ١١٧ .
(٢) ديوان كثير ، القصيدة رقم ٤ .
(٣) الأغانى (طبع دار الكتب المصرية) ٢ / ٧٥ .
(٤) ديوان الطرماح ص ١١٢ .

خاشعَ الصوت ليس ينفعه ثَـمَّ أمانيُّـه ولا لَـدَدُهْ
قل لباكي الأموات لا يَـبْـكِ للنا س ولا يَسْتَـنِـع[1] به فَـنَـدُه
إنما النـاسُ مثلُ نابتـة الزَّر ع متى يَـأنِ[2] يأتِ مُحْتَـصِدُهْ

وهذه الأبيات أشبه ما تكون بموعظة من مواعظ الحسن البصرى ، فهى تستمد من القرآن الكريم ، وما يتردد فيه من أن الناس لهم أجـل محتوم (لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وإنهم (لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) (يوم لا ينفع مال ولا بنون) (يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون » يوم يأتى الظالمون الذين خرجوا عن جادَّة الدين مصفَّدين ، لا تنفعهم أمانيُّهم ، ولا ما كانوا يجادلون به عن أنفسهم ، ولا ما اختزنوه من أموالهم ، كأنما غـرَّهم بالله الغـرور . وهذه كلها صور مبثوثة فى القرآن الكريم وكان الوعاظ يُبْدئون فيها ويُعيدون ، والطرماح يتبعهم ، فينسجها شعرًا زاجرًا الأغنياء الذين يكنزون الذهب والفضة قائلاً لهم : إنهم لن يفلحوا أبدًا ، فإنهم يُضيِّعون ما أعطاهم الله من فضله ، فلا ينفقونه فى وجهه الدينى من الصدقات ، يحسبون ذلك خيرًا لهم (بل هو شـرٌّ لهم سَيُطـوَّقون ما بخلوا به يوم القيامة) . وإنه ليُنهى الأبيات بفكرة الموت التى تتردد فى الذكر الحكيم كثيرًا من مثل قوله تعالى (كل نفس ذائقة الموت) (وإنك ميتٌ وإنهم ميتون) . وفى كل مكان من شعر الشعراء نجد فكرة الموت وأن أحدًا لا يخلد ، فالحياة الباقية هى الحياة الآخرة ، أما هذه الحياة الدنيا فلا ينبغى لأحد أن يتمسك بها لأنها فانية ، واستمعْ إلى هذا الشعر لقَطَـرى بن الفُجاءة[3] .

أقولُ لها وقد طارتْ شَـعَـاعًا من الأبطال ويحكِ لن تُـراعى
فإنَّكِ لو سألتِ بقـاءَ يومٍ على الأجل الذى لكِ لن تُطاعى
فصَبْرًا فى مجالِ الموتِ صـبرًا فما نيـلُ الخلود بمستطـاعِ
ولا ثوبُ البقاء بثوب عـزٍّ فيُطْوَى عن أخِى الخَـنَع اليراعِ[4]

---

(١) يستنع : يتمادى ، والفند : الحمق .
(٢) يأنِ : يينع .
(٣) ديوان الحماسة لأبى تمام (طبع صبيح) ١ / ٣٣ .
(٤) الخنع : الذل ، اليراع : الجبان .

سبيلُ الموت غايةُ كلِّ حيٍّ فداعيــه لأهل الأرض داعى

وواضح أن هذا الشعر الحماسى مطبوعٌ بطابع دينى لا نعرفه فى الحماسة الجاهلية ، ففيه إيمان عميق بأن الدنيا زائلة ، وأن لا شىء باق على وجهها ، وأنه قد كُتِب لكل شخص أجَل معلوم ، لا ينقص ولا يزيد .

وطبيعى أن هؤلاء الشعراء الأمويين الذين حفظوا القرآن الكريم وكانوا يتلونه كل يوم فى صلاتهم ، ومن حولهم الوُعَّاظ والقُصَّاص يعظونهم ، ويوجهونهم إلى ربهم ، ويلقون الفزع فى قلوبهم من عذابه وعقابه ، لا بد أن يتأثروا بذلك فى نفسيتهم وفى شعرهم على نحو ما نرى الآن عند الطرماح وقطرى ، وكما يتراءَى عند وضَّاح اليمن فى قوله[1] :

صَلِّ لذى العرْش واتخذ قَدَماً تُنْجِيك يوم العِثارِ والزَّلَلِ

وكان من هؤلاء الشعراء مَن يتصلون مباشَرَة بالدين ، إذ كان منهم الفقهاء والوعَّاظ ، مثل عُرْوَة بن أذَيْنَة فقيه المدينة الذى يقول فى بعض شعره[2] :

نُرَاعُ إذا الجنــائزُ قابلتْنَــا ويَحْزُنُنــا بكاءُ الباكيــاتِ
كرَوْعَةِ ثَلَّةٍ لمُغــارِ سَبْعٍ فلمــا غابَ عادتْ راتِعــاتِ

وواضح أن عروة يؤنِّب هؤلاء الذين يُرَاعون عند الموت ، ثم يلهون ويلعبون ، كأنهم لا يعقلون ولا يَعُون .

وهناك فكرة تكررت كثيرًا فى بيئات الزهاد والنسَّاك ، وعبَّروا عنها فى صور مختلفة ، وهى تقوم على عدم التفكير فى رزق غد ، لأن ذلك يكون معناه عدم التوكل على الله ، وفى الحديث الشريف « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خِماصًا وتروح بِطانًا » وقد تتابع النساك يأبون التفكير فى الغد والرزق الآجل ، حتى ليقول سفيان بن عُيَيْنَة : « فكْرُك فى رزق غَدٍ يَكْتُبُ عليك خطيئة[3] » . ويُرْوَى عن مسروق بن الأجْدَع أحد زهَّاد الكوفة ووعَّاظها

(١) أغانى (طبع دار الكتب ٦/٢٩٩ . (٣) تذكرة الحفاظ للذهبى (طبع حيدر آباد) ٣/٨.
(٢) البيان ٣/٢٠١ والحيوان ٦/٥٠٧ .

أن زوجه قالت له يومًا : « ما أصبحَ لعيالك اليوم رزقٌ » ، فتبسم وقال : « والله ليأتينهم الله برزق[١] » ، وكان أُوَيْس القَرَنى يقول : « إن معرفة المؤمن بحقوق الله لم تُبْقِ له فضة ولا ذهبًا[٢] » . فكانوا يستنكفون أن يجمعوا مالاً أو يفكروا في آجل رزقهم ، وصوَّر ذلك كله شعراً بديعًا عروةُ بن أذَينة ، إذ يقول[٣] :

لقد علمت وما الإشْراف من خُلُقى ... أن الذى هو رزقى سوف يأتينى
أسعى له فيُعَنِّينى تطلُّبُهُ ... ولو قعدتُ أتانى لا يُعَنِّينى
كم قد أفدتُ وكم أتلفت من نَشَب ... ومن معاريض رزقٍ غير مَمْنون
فما أشِرْتُ على يُسْرٍ وما ضَرَعَتْ ... نفسى لخَلَّة عُسْرٍ جاء يَبْلونى[٤]
خِيمى كريمٌ ونفسى لا تحدِّثنى ... أن الإله بلا رزقٍ يخلِّينى

فهو يعبِّر فى وضوح عن فكرة التوكل على الله التى شاعت فى بيئة الزهاد وما يتصل بها من الثقة بالله وطمأنينة النفس وقناعتها ، وترك كل تصرف لقضاء الله ، وهو لا يهتم بعُسْر ولا يُسْر ، ولا يفكر فى هَمِّ الرزق أو فى هَمِّ الغد ، بل يدع تدبير ذلك لصاحب التدبير . وقد تناقش ، فى هذا العصر ، مالك بن دينار فقيه البصرة ومحمد بن وسيع الأزدى أحد نساكها فى السعادة ، وهل تكون فى زَرْع قطعة من الأرض والعَيْش من غَلَّتها أو تكون فى غير ذلك ؟ وذهب ابن وسيع إلى أن السعيد هو الذى يُفْطِر فى الصباح ولا يدرى ما يكون عَشاؤه ، وأيضا ذلك الذى يجد عشاءه ولا يدرى ما يكون أكله فى الصباح[٥] .

وكان الشعر فى عصر بنى أمية يستجيب لهذا كله وما شاع من وعظ الوعاظ وأقوال النساك ، وأنت لا تكاد تجد شاعرًا إلا وقد أخذ فى شعره من هذه الحياة بحظ يختلف قوة وضعفاً ، وحَسَب نفسيته وصلتها بالإسلام . ولعل من الطريف أن نعرف أن بعض الرُّجَّاز رأى أن يستهل بعض ماينشئ من أراجيز بالحمد والثناء

---

(١) ابن سعد ٦/٥٣ .
(٢) ابن سعد ٦/١١٤ .
(٣) أمالى المرتضى ١/٤٠٩ وأغانى ٢١/١٠٦ . والإشراف فى البيت الأول : التطلع إلى ما فاته من أمور الدنيا ومكاسبها .
(٤) أشرت : بطرت . ضرعت : ذلت . يبلونى : يختبرنى .
(٥) العقيدة والشريعة فى الإسلام لجولدتسيهر (طبع دار الكاتب المصرى) ص ١٣٥ .

على الله بدلاً من الوقوف القديم بالأطلال والبكاء على الديار ، فأبو النَّجْم العِجْلى يبتدئ أشهر أراجيزه بقوله : (الحمد لله الوهوب المُجْزِل) بينما يبتدئ العَجَّاج أهم أراجيزه بقوله : (قد جَبَر الدينَ الإلهُ فجُبِر) ، وفى ديوانه أرجوزة يفتتحها بقوله [1] :

الحمد لله الذى استقلَّتِ ... بإذنه السمــاءُ واطمأنَّتِ

ويستمر ، فيتحدث عن خلق السموات والأرض ، وما يكون من البعث والنشور ، ويتحول إلى ما يشبه الواعظ . وكثيراً ما يعتريه هذا التحول فى شعره وأراجيزه ، وهو تحوّل لا نرتاب فى أنه كان أثر هذا الوعظ الدينى ، الذى كان يستمع إليه الشعراء فى العراق .

ومن طريف ما يُلاحَظ فى هذا الجانب أنه ظهرت فى الشعر أدعية وابتهالات على نحو ما نجد عند الزهاد والنساك ، وهى أدعية وابتهالات فيها فَزَعٌ من عذاب الله وعقابه ، وسكونٌ إلى رحمته ومغفرته ، من مثل قول ذى الرُّمَّة [2] :

يا ربِّ قد أشرَفَتْ نفسى وقد علمتْ ... علمًا يقينًا لقــد أحصيتَ آثارى

يا مخرجَ الروح من جسمى إذا احتضرتْ ... وفارجَ الكَرْب زَحْزِحْنى عن النار

ويمتلىء ديوان ذى الرُّمَّة بعناصر إسلامية كثيرة من ذكر الصلاة وتقصيرها فى السفر ، وما يكون من التيمُّم وتلاوة القرآن فى السَّحَر وأثناء الليل ، من مثل قوله [3] :

إذا انجلى البرقُ عنه قام مبتهلاً ... لله يَتْلو له بالنَّجْم والطُّورِ

وأكبر الظن أن فيما قدمنا من هذا كله ما يدل أوضح الدلالة على أن الشعر فى عصر بنى أمية تطور بتطور الحياة الدينية ، فقد كانت هذه الحياة فى مستقر نفوس الشعراء وأوعية أوهامهم وأحلامهم ، فانطلق كثيرون منهم يُذيعون ذلك فى شعرهم ، حتى لتتحول قطع من نَظْمهم إلى عظات ، وابتهالات دينية .

---

(١) ديوان العجاج (طبع ليبسك) ص ٥ .
(٢) ديوان ذى الرمة (طبعة كبريدج) ص ٦٦٧ .
(٣) نفس المصدر ص ٢٨١ .

٢

الحياة العقلية

كان الإسلام سببًا فى أن خرج العرب من طور البداوة إلى طور الحضارة ، ومعروف أن الأمم فى الدور الأول لا تحقق لنفسها نهضة فكرية ، فحياتها العقلية لا تزال تَحُدُّها أسوار السذاجة والطفولة . وقد نقل الإسلام العرب نقلة كبيرة ، فقد استولى فيما استولى عليه عند الأمم المفتوحة على جميع تُرَاثها العقلى الذى تحدثنا عنه فى الفصل السابق ، فما هى إلا عَشِيَّةٌ أو ضُحاها ، حتى أخذت سيول الثقافات الأجنبية التى كانت مبثوثة فى العراق والشام ومصر تنحدر إلى مجرى النهر العربى وتحدث تطورًا هائلا فى حياة العرب العقلية .

وكان من آثار ذلك أن انبثقت فى هذا العصر حركات تعليمية كثيرة ، على رأسها الحركة الدينية التى عُنِيت بتفسير القرآن الكريم ورواية الحديث الشريف ، كما عُنيت بوضع قواعد الفقه الإسلامى الذى لم يقف به أصحابه عند أمور العبادات الدينية ، بل وسَّعوه حتى شمل كل فروع الحياة المدنية والسياسية . وكانت الأصول التى تُسْتَمَدُّ منها قواعد هذا الفقه هى القرآن والحديث وإجماع المسلمين ثم القياس . ومعنى ذلك أن الاستنتاج والرأى الشخصى احتُرِما فى الفقه الإسلامى منذ أول الأمر ، يَشهد لذلك ما رُوِىَ عن الحسن البصرى من أن شخصًا سأله عن بعض فتاويه : أبرأيه أم سمعها ، فقال : « لا والله ما كلّ ما نُفْتِى به سمعناه[1] » .

وقد أخذت تُؤَسَّسُ فى كل بلدة كبيرة مدرسة فقهية ، فكان فى مكة عِكْرِمة ، وعَطَاء وابن أبى مَلِيكة . وفى المدينة سالم ، ونافع ، وعبيد الله بن عبد الله بن عُتْبة ، وعُروَة بن الزُّبير ، والزُّهْرى . وفى اليمن وهب ابن مُنَبِّه وطاووس . وفى مصر الصَّابحى ، وأبو تميم ، ويزيد بن عبد الله البَرْبَرىّ . وفى الشام

(١) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١٢٠ .

شَهْر بن حَوْشَب ، ورجاء بن حَيْوَة الكندى ، وهانئ بن كلثوم ، ومكحول والأوزاعى . وفى خراسان عطاء بن مسلم والضحاك بن مُزَاحم . وفى الكوفة النَّخْعى والشَّعْبى ، وشُرَيح بن الحارث القاضى ، وسعيد بن جُبَير . وفى البصرة الحسن وابن سيرين ، وقَتادة ، وإياس بن معاوية ، ومالك بن دينار ، وأيوب السَّخْتيانى .

وهؤلاء الفقهاء من عرَب وموال أخذوا يُشَرِّعون للناس أمور دينهم ودنياهم . وكان للأخذ بأصل القياس فى الفتوى أثر واسع فى اختلافهم فى مسائل كثيرة . واشتهرت بيئة الحجاز بغلَبة الحديث عليها ، كما اشتهرت بيئة العراق بغلبة القياس ، ولذلك نبغ منهم من سمُّوا أهل الرأى [1] . واختلافات كثيرة قامت بين البيئتين فى الأحكام والآراء ، إلا أن ذلك لم يُحْدث حَرَجًا ، فقد رُوِى عن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اختلافُ أمتى رحمة » وعن يحيى ابن سعيد : « أهل العلم أهل توسعة ، وما بَرِح المُفْتُون يختلفون ، فيُحَلِّل هذا ويُحرِّم هذا ، فلا يعيب هذا على هذا ، ولا هذا على هذا [2] » .

وكان هذا الاختلاف مَحَكًّا للعقول ومَشْحَذة للأفكار ، فكان هؤلاء الفقهاء وتلاميذهم يبحثون فى وجوهه وأسبابه ، حتى بلغ من أيوب السَّختيانى أن قال : « لا يعرف الرجل خطأ معلمِه حتى يسمع الاختلاف [3] » : وكان من آثاره أن بعض الفقهاء كان يتحرج فى الفتوى ، فقد رُوِىَ عن النخعى أنه كان لا يقول عن شىء إنه حرام مطلقًا أو حلال مطلقًا ، ولكن يقول : إن هذا يتكرَّهه الصحابة وذاك يستحسنونه [4] . ولكن أمثال النخعى كانوا قليلين ، وكانت الكثرة تذهب إلى الحكم البيِّن والفتوى الواضحة . وسرعان ما رأينا الفقهاء يتحاورون فيما بينهم ، فكان الشَّعبى يجلس فى مجالسه وأصحابه يناظرونه فى الفقه [5] . ولم تقف هذه المناظرات والمجادلات عند بيئة الفقهاء ، بل انتقلت إلى مجالس الخلفاء ، فقد رُوِى أن سليمان بن عبد الملك جمع بين قَتَادة والزُّهْرى ، فغلبه

---

(١) المعارف لابن قتيبة (طبعة وستنفلد) ص ٢٤٨ .
(٢) العقيدة والشريعة فى الإسلام ص ٢٨٣ .
(٣) بيان ٢/٩٨ .
(٤) سنن الدارمى (طبعة دمشق) ١/٦٤ وانظر ابن سعد ٦/٢٤٤ .
(٥) بيان ٢/٣٢٢ .

قتادة[١]. وكانت هذه المجادلات تأخذ أحيانًا شكل أسئلة ، رَوَى ابن سعد أن « إياس بن معاوية حين قدم واسطًا جعلوا يقولون: قَدِم البَصْرى ، فأتاه ابن شُبْرمة بمسائل قد أعدَّها له ، فجلس بين يديه ، فقال: أتأذن لى أن أسألك ، قال : ما ارتبتُ بك حتى استأذنتنى ، إن كانت لا تُعْنت القائل ولا تؤذى الجليسَ فسَلْ ، فسأله عن بضع وسبعين مسألة ، فما اختلفا يومئذ إلا فى ثلاث مسائل أو أربع ، رَدَّه فيها إياس إلى قوله ، ثم قال : يا بن شبرمة هل قرأت القرآن ؟ قال : نعم من أوله إلى آخره ، قال: فهل قرأت : (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى) ؟ قال : نعم وما قبلها وما بعدها قال : فهل وجدته بقى لآل شبرمة شىء ينظرون فيه ؟ فقال : لا ، فقال له إياس : إن للنسك فروعا ، فذكر الصوم والصلاة والحج والجهاد، وقال إنى لا أعلمك تعلقت من النسك بشىء أحسن من شىء فى يدك : النظر فى الرأى[٢] » . وواضح أن إياسًا جعل النظر فى المسائل الفقهية وفروع الدين فوق النسك والعبادة .

وما من ريب فى أن هذا النظر الفقهى وما طُوِى فيه من حوار وجدل كان له أثره الواسع فى العقل العربى العام حينئذ ، فإن الناس ومعهم الشعراء كانوا يستمعون إلى هذه المجادلات والمناظرات . ومن طريف ما رَوَى الرواة فى هذا الصدد أن الفرزدق كان يلزم حَلْقة الحسن البصرى ، بينما كان جرير يلزم حلقة ابن سيرين[٣] وحدَّث صاحب الأغانى أن رجلا « سأل الحسن البصري يومًا وعنده الفرزدق عن اليمين اللَّغْوِ فى الكلام من مثل لا والله ، فقال الفرزدق له: أو ما سمعتَ ما قلتُ فى ذلك ؟ فقال الحسن . ما كل ما قلتَ سمعوا فما قلت ؟ فقال : قلتُ :

ولستَ بمأخوذٍ بلَغْوٍ تقُولُهُ إذا لم تَعَمَّدْ عاقداتِ العزائمِ

ولم ينشَب أن جاء شخص آخر ، فسأل الحسن عن سَبِيَّةِ الحرب المتزوجة أتَحِلّ لمن سباها ؟ ، فقال الفرزدق أيضًا : أو ما سمعت ما قلتُ فى ذلك ؟ وأنشد :

---

(١) بيان ١/٢٤٣ .
(٢) ابن سعد ج ٧ ق ٢ ص ٥ .
(٣) ابن عبد ربه ٣/١٦٩ .

وذاتِ حَلِيلٍ أنكحتْنا رماحُنــا حَلالٌ لمن يَبْنِى بها لم تُطَلَّقِ[١]»

وأظن فى ذلك ما يدل أبلغ الدلالة على صلة الشاعر الأموى بكل ما كان يجرى فى بيئات الفقهاء . والذى يهمنا حقًّا أنه كان يطّلع على وجوه الخلاف وكانت تدعم عقله وتغذى فكره .

وأخذت تتكوّن فى هذا العصر وفى العراق خاصة بذور علم الحِيَل الذى شاع فيما بعد عند فقهاء الأحناف ؟ وهو علم يقوم على اتساع المخرَج الذى يمكن أن يُخلِّص من يقع فى إشكال دينى ،وكان أهم جانب طُبِّقَ فيه جانب الأيْمان ، وقد أشار إليه جرير فى بعض نقائضه ، فقال[٢] :

ولا خَيْرَ فى مالٍ عليــه أَلِيَّةٌ ولا فى يمينٍ غير ذات مَخارمِ

والألية : اليمين ، والمخارم : الطرق فى الجبال ، ويريد بها جرير هنا الطرقَ التى يَمْضِي فيها التحليل والاستثناء . ويقول ذو الرمة فى وصف سُرَاه بالليل[٣] :

طَوَى طِيَّةً فوق الكَرَى جَفْنَ عينه على رَهَباتٍ من جَنان المُحاذرِ[٤]
قليلا كتَحْليل الأُلى ثم قلَّصتْ به شيمةٌ رَوعاءُ تقليصَ طائرِ[٥]

فهو يشبِّه إغفاءه وانتباهه السريع فى السفر بتحليل الألى جمع ألوة وهى اليمين . فالشعر لم يكن غائبًا عن مجالس الفقهاء ، بل كان حاضرًا ، وكان يقظًا لكل ما يصدر منهم ، وإذن فما كان فى هذه المجالس من حجاج وجدل ومناظرات ، كل ذلك أخذ طريقه إلى عقول الشعراء . ويكفى أن نقرأ ما يروى فى البيان والتبيين عن إياس بن معاوية ومدى ذكائه ومقدرته فى الجدل والاحتجاج[٦] لنعرف إلى أى حد كان يؤثر هؤلاء الفقهاء فيمن حولهم من شعراء وغير شعراء .

---

(١) أغانى (طبع الساسى) ١٩/ ١٤.
(٢) نقائض جرير والفرزدق (طبعة بيفان) ص ٧٥٤ .
(٣) الديوان ص ٢٩٤ .
(٤) يقول ذو الرمة إنه أغمض عينيه على نوم قليل . وقوله من جنان المحاذر أى مما أجنه صدره من الخوف .
(٥) يقول ذو الرمة إن شيمته رائعة ،وقلصت به تقليص طائر أى ارتفعت ارتفاع الطائر فى سرعته ، يريد أنها قوية .
(٦) انظر البيان والتبيين ١/ ٩٨ وما بعدها .

وأخذت تظهر بجانب ذلك أبحاث فى العقيدة ، وظهرت معها مقدمات علم الكلام . وكان من أهم المسائل التى عُرضت للبحث مسألةُ الإيمان وهل من الضرورى أن يُرْفَق بالعمل أو ليس ذلك من الضرورى ؟ فالمسلم يعدُّ مؤمناً وإن جارَ عن طريق القَصْد ، وبذلك لا يكون هناك فرق بين مسلم ومسلم ، فالجميع من أهل القِبْلة ، وإن عصوا ، أو لم يؤدوا الفروض الدينية ! .

وذهبت تدعو هذه الدعوة فِئةٌ سميت بالمُرْجِئة ، وكان من أهم ما دعت إليه تركُ الحكم على مصير الناس إلى ربهم ، فعلى وعثمان ومعاوية مؤمنون ، ولا نستطيع الحكم على أحدهم بخطأ ، وكذلك كل مسلم لا يصح أن نتعرض له بحكم على عمله ، فيكفى أن يكون مسلماً ، أما عمله فذلك لربه ، حتى ولو لم يَصُمْ ولم يصلِّ فهو مسلم ولا يصح أن يُطْرَد من حظيرة الإسلام.

وبذلك كان أول مبادئ المرجئة إرجاء الحكم على المسلم وترك أمره لربه حتى لو أهمل الفروض الدينية ، بل حتى لو اقترف المعاصى والآثام . وكثرتهم تؤمن بالجبر وتعطيل حرية الإنسان أمام القدر. وكان منهم من يرى أن تُرَدَّ الخلافة إلى الأمة فلا تختص بها قريش سواء بيتها الأموى الحاكم أو البيت العلوى .

ومن هنا كان مذهب المرجئة مثاراً لمناظرات ومجادلات كثيرة فى العراق ، وخاصة فى الكوفة دارِ الشيعة ومستقرِّهم منذ على ، فكانوا ما يزالون يتحاورون معهم ويتناقشون ، يدل على ذلك ما رواه ابن سعد من أن رجلا « كان يأتى النَّخَعى فيتعلم منه ، فيسمع قوماً يذكرون أمر على وعثمان ، فقال : أنا أتعلم من هذا الرجل ، وأرى الناس مختلفين فى أمر على وعثمان ، فسأل إبرهيم النخعى عن ذلك فقال ما أنا بسبئىّ ولا مرجئ[1] » . والسبئى نسبة إلى عبد الله بن سبأ أحد غلاة الشيعة . وفى البيان والتبيين لبعض الشعراء[2].

إذا المُرْجِىُّ سرّك أن تراهُ ... يموت بدائه من قبل مَوْتِهْ

فجدِّدْ عنده ذِكرى علىٍّ ... وصلِّ على النبىّ وأهل بيتِهْ

(١) ابن سعد ٦/١٩٢ .

(٢) بيان ٣/٣٥٠ .

ويظهر أن الجدل فى الإرجاء اتسع ، فنحن نجده ينتقل إلى مجالس الخلفاء فقد رُوِىَ أن عمر بن عبد العزيز حين وَلِىَ الخلافة رحل إليه من الكوفة عَوْف بن عبد الله بن عُتْبَة بن مسعود الهذلى ، ومعه أبو الصباح موسى بن أبى كثير وعمر بن حمزة ، فكلموه فى الإرجاء وناظروه ؛ فزعموا أنه وافقهم ولم يخالفهم فى شىء منه[1] .

ونجد فى هذا العصر شاعراً يثبت فى شعره آراء المرجئة الجَبْرِيَّة ، ويوضّح أصول العقيدة التى اعتنقوها ، وهو ثابت قُطْنَة الذى نشأ فى العراق ، ثم تقلّب فى حروب خراسان قائداً وعاملا من عمّال الثغور ، واستمعْ إليه يقول[2] :

نُرْجِى الأمورَ إذا كانت مشبَّهةً ... ونَصْدُقُ القول فيمن جارَ أو عَنَدا
المسلمون على الإسلام كلهمُ ... والمشركون أشَتُّوا دينهم قِدَداً[3]
ولا أرى أن ذنبًا بالغٌ أحداً ... م الناس شركا إذا ما وحَّدوا الصمَدا
وما قضى الله من أمرٍ فليس له ... ردٌّ وما يَقْضِ من شىءٍ يكُنْ رَشَدا
كلُّ الخوارج مُخْطِىءٌ فى مقالته ... ولو تعبَّد فيما قال واجتهدا
أما علىٌّ وعثمانٌ فإنهما ... عبدان لم يُشركا بالله مذ عَبَدا

وهذه وثيقة طريفة أودع فيها ثابت رأى المرجئة ، فهم لا يحكمون على الأمور المشتبهة ، وهم فى الوقت نفسه لا يُكفرون أحداً من المسلمين على نحو ما يصنع الخوارج إذ كفَّروا عامة المسلمين ، وزعموا أن دارهم دارُ حَرْبٍ ، فيجب أن يقاتَلوا أو يتبعوهم على مذهبهم . ثم هم يُرجئون الحكم على عثمان وصاحبه علىّ ، فهم مُرْجِئَة ، يرجئون الحكومة على الأعمال .

وأشار ثابت فى البيت الرابع من أبياته إلى مسألة أخرى لعبت دوراً طويلاً فى تاريخ علم العقائد الإسلامى أو علم الكلام ، وهى مسألة الجبر والاختيار فى إرادة الإنسان وأعماله . وقد التحم فى هذه المسألة علم العقائد المسيحى[4]

---

(١) ابن سعد ٦/٢١٨ .
(٢) أغانى (طبع الساسى) ١٣/٥٠ .
(٣) أشتوا : فرقوا . قددا : فرقا مختلفة الأهواء .
(٤) انظر فى ذلك الحضارة الإسلامية لفون كريمر ص ٦٦ وكذلك انظر تاريخ الفلسفة فى الإسلام لدى بور ص ٤٩ .

بما جاء فى القرآن الكريم والحديث الشريف من آى ونصوص ، قد يُفْهَم منها الجَبْر أو يفهم منها الاختيار . وواضح من بيت ثابت أنه من الجَبْرِيَّة وكان من المرجئة من لا يؤمن بالجبر وأن حرية الإنسان معطلة أمام القدر. وبذلك كانوا فريقين : فريقًا جَبْرِيًّا وفريقًا قَدَرِيًّا . ومعروف أن القدَرية هم القائلون بحرية الإرادة ، حتى يحمل الإنسان وِزْرَ ما يرتكبه من أعمال . ويظهر أنهم أحسوا فى الجبر لا دعوةً للاتكال والتهاون والركون إلى القدر فحسب ، بل أحسوا فيه دعوة سياسية ماكرة لبنى أمية لأنه يفضى بالناس إلى أن يعتقدوا أن حكم بنى أمية مهما ظلموا قَدَرٌ مقدور ، سبق لهم فى أمِّ الكتاب ، فلا داعى لنقدهم ولا للخروج عليهم .

ويمثِّل النزعة الجَبْرِيَّة فى وضوح من خلفاء بنى أمية عبد الملك بن مروان فإنه استقدم عمرو بن سعيد بن العاص حين ثار عليه فى حِمْص ، ليصالحه ثم غدر به وقتله ، ونادى فى أصحابه : « إن أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما كان من القضاء السابق والأمر النافذ الذى لا يمكن تجنُّبُه »[1] .

وإذا كانت الكوفة قد عُرفت بمناقشاتها ومناظراتها لهذا العصر فى الإرجاء فإن البصرة عُرفت بمحاوراتها ومجادلاتها فى القَدَر . وزعيم القائلين فيها بالقدر غير منازَعٍ الحسن البصرى ، ويُرْوَى أن عطاء بن يَسار ومعبداً الجُهَنِى كانا يأتيانه فيقولان : « إن هؤلاء الملوك (بنى أمية) على قَدَر الله فيقول كذب أعداء الله[2] ». وفى دار الكتب المصرية رسالة مخطوطة طريفة موجَّهة من الحسن البصرى إلى عبد الملك يرد فيها على ما سأله عنه من قوله بالقدر ، وقد تحمس فيها الحسن تحمسًا شديدًا لمذهب القدر ، وأتى بكل ما يَسْنُده من آى القرآن ونصوص الحديث . ويظهر أنه كان دائم الجدال فى هذه المسألة يُثيرها فى مجالسه ، ويثيرها معه من يستمعون إليه ، فقد رُوِىَ عن أيوب السَّختيانى أنه كان يقول : « نازلت الحسن فى القدر غير مرة »[3] .

وقد ظهر فى مجالسه كثير من شُعَب القول بالقدر كشعبة العَدْل وأن الله

---

(١) الإمامة والسياسة (نشر المكتبة التجارية) ٢/٢٥ .
(٢) المعارف ص ٢٢٥ .
(٣) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١٢٢ .

لا يظلم أحدًا ، ففى الذكر الحكيم (إن الله لا يظلم مثقال ذرة) . وهى فكرة تتصل مباشرة بحرية الإرادة وأن كل إنسان يُجْزَى حسب عمله ، وكان الحسن يؤمن بها[1] ، وبأصلها من فكرة الإرادة وحرية العمل . ولعل من الطريف أن نجد الحجاج حين يحتضر يُنْشِد هذا الشعر[2] :

إنَّ ذنبى وزْنُ السموات والأر ض وظنِّى بخالقى أن يُحابى
فلئن منَّ بالرضا فَهْو ظنى ولئن مرَّ بالكتاب عذابى
لم يكن ذاك منه ظلمًا وهل يَظ لم ربٌّ يُرْجَى لحُسْن المآبِ

وهذا شعر يتصل مباشرة بفكرة العدل على الله وأنه لا يظلم أحدًا نقيرًا . وكما ظهرت هذه المسألة فى مجالس الحسن ظهرت مسألة أخرى ، دلت على فكر دقيق ، وهى مسألة مرتكب الكبيرة الذى تكفِّره الخوارج ، فقد ذهب الحسن إلى أنه مؤمن فاسق ، وذهب تلميذه واصل إلى أنه فى منزلة بين المنزلتين ، أى منزلة بين الإيمان والكفر[3] .

ويقول الرواة إن الحسن البصرى كان يجمع بين واصل وتلميذ له آخر هو عمرو ابن عُبَيد ليتناظرا فى هذه المسألة . وروى المرتضى فى أماليه إحدى مناظراتهم[4] وهى تصور فى وضوح دقة الفكر التى وصل إليها الناس فى العصر الأموى .

ولم يكن الشعراء بمعزل عن هذا كله ، بل شاركوا فيه . فذو الرُّمَّة مثلا كان على مذهب القدر وما يتصل به من فكرة العدل ، يشهد لذلك ما يُرْوَى من أنه اختصم فيه مع رُؤْبَة الذى كان يرى رأى الجبرية ، فقال رؤْبة : « والله ما فحَص طائر أفْحوصًا[5] ولا تقرمَص سبع قُرْموصا[6] إلا بقضاء من الله وقدر ، فقال له ذو الرمة : والله ما قدَّر الله على الذئب أن يأكل حَلوبة عيَايل[7] ضرَائك[8] ، فقال رؤبة : أفبقدرته أكلها ؟ هذا كذب على الذئب ثان ، فقال ذو الرمة : الكذب على الذئب خير من الكذب على ربِّ الذئب[9] » .

---

(١) أمالى المرتضى ١/ ١٠٢ .
(٢) ذيل الأمالى والنوادر طبع (دار الكتب المصرية) ص ١٧٢ .
(٣) الملل والنحل للشهرستانى (طبع لندن) ص ٣٣ .
(٤) أمالى المرتضى ١/ ١٦٥ وما بعدها .
(٥) أفحوص الطائر : مجثمه الذى يفحصه .
(٦) القرموص : مبيت السبع ، أو المكان يأوى إليه .
(٧) العيايل : جمع عيل وهو ذو العيال .
(٨) الضرائك : جمع ضريك وهو الفقير .
(٩) أمالى المرتضى ١/ ١٩ .

وواضح أن ذا الرمة : يأخذ بمذهب القدرية بينما يأخذ رؤبة بمذهب الجبرية .
وعن إسحق بن سُوَيْد أنه قال : « أنشدنى ذو الرمة قوله :

وعينان قال اللهُ كونا فكانتـا فَعُولان بالألبـاب ما تفعل الخمرُ

فقلت له : هلا قلت فعولين ، فأجاب لو قلت : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر كان خيرًا لك » . يريد أن يعرِّفه أنه راغب عن فكرته فى الجبر[1] .

فذو الرمة شاعر قدرى وكان يقابله فى الكفة الثانية أو فى الصفّ الثانى رؤبة وجميع شعراء بنى أمية الذين كانوا يمدحونهم وينالون جوائزهم ، فقد كانوا يرون سادتهم على مذهب الجبر ، فكانوا يتعمدون الاحتكام إليه فى تقرير خلافة بنى أمية إما عن عقيدة ثابتة وإما من أجل إرضائهم . وفى كل مكان من شعر جرير والفرزدق نجد اللجوء إلى الجبر فى تقرير خلافة الأمويين وأن الله كتب ذلك ، ولا مَفَرَّ منه ولا تبديل لكلماته ، يقول جرير[2] :

نال الخلافةَ إذ كانتْ له قَدَرًا كما أتى ربَّه موسى على قَدَرِ

والأمثلة فى ديوانه وديوان صاحبه الفرزدق أكثر من أن ندلّ عليها ببيت أو أبيات ، واستمعْ إلى أعْشى بنى تَغْلِب يقول[3] :

وإن أمـير المؤمنين وجَـرْحَهُ لكالدهر لا عارٌ بما فعَل الدَّهْرُ

وهو يشير بذلك فى صراحة إلى أنه لا يصح لأحد أن يشكو من أمير المؤمنين ظلمًا ، لأن ما يصدر عنه إنما هو بقدر من الله .

وعلى هذا النحو كان الشعراء فى عصر بنى أمية يُصْبِغ شعرهم بكل ما يدور فى بيئات الفقهاء وأصحاب الكلام ، بل رأينا منهم من كان يشترك فى المناقشات الدائرة فى هذه البيئات كما مَرَّ بين ذى الرمة ورؤبة ، فالجو كله كان جوَّ بحث ، وكان كل شاعر يعرض عقله ورأيه فيه . ويخيَّل إلى الإنسان أنه لم تكن هناك مسألة من المسائل فى هذا العصر إلا وتناقش فيها الناس فى سلمهم وحربهم ، وفى

---

(١) أغانى طبع الساسى ١٦/١١٧ .
(٢) الديوان ص ٢٧٥ .
(٣) (أغانى طبع دارالكتب) ١١/٢٨٢ .

مساجدهم وطرقاتهم ، فالفقهاء يتناقشون ، والقدرية والجبرية يتجادلون ، والمرجئة والشيعة يتحاورون . وكذلك الخوارج يدعون إلى المناقشة والمناظرة على نحو ما دعا الحَرُورِيَّة مطرِّف[1] بن عبد الله بن الشِّخِّير . وكانوا يتجادلون ويتناظرون أيضًا فيما بينهم ، مما دعا إلى كثرة الانقسام فى صفوفهم ، حتى قال زيد بن جُنْدُب خطيب الأزارقة[2] :

ما كان أغنى رجالا ضلّ سعيهمُ عن الجدال وأغناهم عن الخُطَبِ
كنا أناسًا على دين ففرَّقنا طولُ الجدال وخَلطُ الجِدِّ باللعب

فلم تكن فى هذا العصر نحلة ولا فكرة إلا وكانت موضعًا لمناظرات ومجادلات شتَّى .

وقد انسابت هذه المجادلات والمناظرات فى شعر الشعراء ، فكثر شعراء الفرق من شيعة وخوارج وأمويين ، وكثر شعراء الجبرية والمرجئة والقدرية ، واحتدم الحِجاج والحوارُ بين هؤلاء الشعراء جميعًا ، حتى لنجد شاعرًا يؤلف ديوانًا فى الاستدلال للهاشميين وبيت على خاصة ، وهو الكُمَيْت بن زيد ، فقد ألف ديوانه (الهاشميات) انتصارًا لزيد بن على بن الحسين إمام الطائفة المعروفة بالزيدية ، وكان زيد تلميذًا[3] لواصل بن عطاء ، ومعنى ذلك أنه كان من المعتزلة ، وكذلك جميع الزيدية . وإذن فالكميت أيضًا يُعَدّ من المعتزلة .

والكميت من هذه الناحية شخصية طريفة لأنه من جهة يُعَدّ من المعتزلة ومن جهة يعد من الشيعة ، وديوانه لذلك يصور الناحيتين ، ويكشف عن مدى ما أصاب التفكير الفنى فى هذا العصر من تطور ، إذ نجد هذا التفكير يتحول إلى جدال وطرق استدلال لم نكن نألفها فى القديم ، فقد أصبح الشاعر يعتنق نظرية سياسية خاصة يؤمن بها ويجعلها محور شعره ، كما أصبح مثقفًا بطرق الجدال والحوار المعاصرة وهو يُطبِّقها فى شعره تطبيقًا ، ويُخْضع نفسه وفنه لأساليبها إخضاعًا

---

(١) ابن سعد ج ٧ ق ١ ص ١٠٤ .
(٢) بيان ١/٤٢.
(٣) انظر الشهرستانى ص ١١٥ – ١١٦.

وإذا كان الكميت فى « هاشمياته » يتصل مباشرة بالمناظرات المعاصرة له فى الشيعة وغيرهم ، فقد وُجِد من ورائه من لم يحاولوا تأليف ديوان خاص فى نِحْلَة من النِّحَل، ومع ذلك تأثروا بهذه المناظرات فى طرق تفكيرهم . ويكفى أن نرجع إلى نقائض جرير والفرزدق فى قَيْس وتَميم لنعرف أن هذه النقائض لم تكن فى حقيقة الأمر سوى مناظرات عَقدها الشاعران التميميان فى عصبيات وأيام قديمة ، وقد أخذ كل منهما يحاول أن يتفوق على خصمه تماماً كما يصنع المتناظران فى نحلة من النحل أو عقيدة من العقائد .

فالنقائض التى اشتهرت فى تاريخ الشعر الأموى ليست إلاّ مناظرات بالمعنى الدقيق لهذه الكلمة ، وسنعرض فى الفصل التالى لصورتها ونشأتها . ونحن ننبّه منذ الآن إلى أنها فَنّ أموى غَذّته وطَوّرته هذه البيئة الجدلية بيئة العراق وما انبثّ فيها من طرق حوار واستدلال فى كل شىء ، وهو حوار واستدلال لم يلبث أن اتصل به الفرزدق وجرير وتناول كل منهما قَبَسا منه ألّفا على ضوئه هذه النقائض . وسرعان ما أقبل الأخطل يشاركهما فى هذا الحوار أو قل هذه المناظرات ويبعث فيها جانباً جديداً من المفاضلة بين قيس وتغلب . وكل ذلك يُرادُ به إلى التسلية وقطع أوقات الفراغ لقبائل العرب التى استقرت فى العراق ، ولم يكن يراد به جِدّاً ولا ما يشبه الجد مما سنفصل فيه القول فيما بعد .

والحق أن عقلية الشاعر الأموى اختلفت تمام الاختلاف عن عقلية الشاعر القديم ، فقد ثَقِف أشياء لم يكن يَثْقَفها الشاعر الجاهلى ، وخضع فى تفكيره لأشياء لم يكن يخضع لها الشاعر الجاهلى ، فأنتج (النقائض) و (هاشميات الكميت) من جهة وأنتج عمقاً وطرافة فى التفكير الفنى نلاحظهما فى معانى كثير من الأبيات من جهة أخرى .

ولعل أهم ما يلاحَظ على تفكيره وعقليته وما طرأ عليهما من تطور أننا نحس عنده أنه أخذ يتناول حرفته تناولاً جديداً ، عماده البحث والدرس اللذان ألِفَهما فى بيئات الفقهاء وأصحاب التفكير فى العقيدة الدينية من إرجاء وقدَر وجَبْر وعَدْل ومنزلة تتوسط منزلتين ، كما توسطت منزلة صاحب الكبيرة بين الكفر والإيمان عند واصِل .

وارجعْ إلى ديوان الفرزدق فإنك تجد فيه قصيدة لامية يفتخر فيها بأنه وريث شعراء الجاهلية من مثل امرئ القيس وعَلْقمة والمُهَلهل وطَرفة والأعشى والمُرقّش وبِشْر بن أبى خازم وعَبيد وزهير، ويصف كل منهم وصفًا يدل على معرفته به ودراسته لشعره ، ويذكر لبيدًا فيقول[١] :

والجعفرىّ وكان بشرٌ قبله   لى من قصائده الكتاب المجمَلُ

فهو يصرّح بأن لديه نسخة مكتوبة من ديوان لَبيد . ولعل فى ذلك ما يدل دلالة قاطعة على أن كتابة الشعر كانت متداولة فى هذا العصر ، ونحن لا نستطيع أن نفهم ما يُرْوَى عن الفرزدق من أنه كان يأمر راويه حين يستمع إلى شعر فيستحسنه أن يضيفه إلى شعره [٢] إلاّ إذا كانت هناك نسخة مكتوبة من ديوانه ، حتى يضيف إليها الراوى الشعر الجديد .

قد يقال إن الشعراء كانوا أميين ولكن نصوصًا كثيرة تثبت أنهم كانوا كاتبين فجرير كان كاتبًا[٣] وكذلك عمر بن أبى ربيعة [٤] والأحْوص[٥] وعَدِىّ[٦] بن الرّقاع ، ويَرْوِى الجاحظ أن ذا الرمة كان يقول لعيسى بن عمر : « اكتبْ شعرى ، فالكتابُ أحبُّ إلىّ من الحفظ ، لأن الأعرابى ينسى الكلمة وقد سهر فى طلبها ليلته ، فيضع فى موضعها كلمة فى وزنها ، ثم ينشدها الناس ، والكتاب لا يَنْسى ولا يُبَدّل كلامًا بكلام[٧] »

فشاعر العصر الأموى كان شاعرًا كاتبًا وكان يكتب شعره وشعر غيره كى يدرسه ويبحثه وينقل عنه حين يريد النقل ويحوّره حين يريد التحوير . ولعل مما يدل على ذلك أكبر الدلالة أننا نجد الصلة شديدة بين معانى الشاعر الأموى والشاعر الجاهلى . وتعرض كتب النقد الأدبى عند العرب كثيرًا لأبيات فى الجاهلية أعاد الأمويون صياغتها فاستكملوا الصورة وأتموها ، أو بيّنوا الفكرة ووضّحوها ، فمن ذلك أن النابغة شبه ثَوْر الوحش فى التماعه بالسيف المجرد من الغِمْد إذ يقول[٨] :

---

(١) الديوان ص ٧٢١ .
(٢) أغانى ١٩/٢٢ .
(٣) أغانى (طبع دار الكتب) ٨/٣٢ .
(٤) أغانى ١/٢٣٥ .
(٥) أغانى ٤/٢٤٦ وما بعدها .
(٦) الشعر والشعراء (طبع ليدن) ص ٣٩٢ .
(٧) الحيوان ١/٤١ .
(٨) المعلقات العشر (طبع مطبعة الاستقامة) ص ١٦٢ .

من وحْشِ وَجْرَةَ موشىّ أكارعُه طاوى المصير كسيف الصَّيْقَل الفَرِدِ [١]

فجاء من بعده الطِّرِمَّاح ورأى أن يُبْرز الصورة إبرازًا جديدًا، فشبَّه الثور وهو يبدو تارة ويختفى أخرى بسيف فى يد شخص بمكان عال ، وهو يسلُّه تارة ويغمده تارة ، فقال[٢] :

يَبْدو وتُضمِره البلاد كأنَّهُ سَيْفٌ على شَرَفٍ يُسَلّ ويُغْمَدُ

ومن ذلك أن زهيرًا تعرَّض للموت والحياة ، فقال إن المنايا تَخْبِط على غير هُدًى فمن تصبه يمت ، ومن تخطئه يعمِّر ويمتد به الأجل ، إذ يقول[٣] :

رأيتُ المنايا خَبْطَ عَشْواءَ من تُصِبْ تُمِتْه ومن تُخْطِئْ يُعَمَّرْ فيهرَمِ

فأتى من بعده أبو النَّجْمِ العِجْلى ، ورأى أن يعبِّر عن هذه الفكرة تعبيرًا جديدًا أو قل رأى أن يبسطها بسطًا ، وأن يكشفها كشفًا ، فقال[٤] :

إنَّ الفتى يصبحُ للأسقامِ كالغرض المنصوبِ للسِّهَامِ
أخطاه رامٍ وأصاب رامِ

فالشاعر الأموى تعلَّق بمعرفة المعانى الجاهلية ، وأخضعها للدرس المنظَّم على نحو ما كان المحدِّثون والفقهاء وأصحاب الكلام فى العقيدة الدينية يدرسون ويبحثون ، وقد أسعفته عقليته الجديدة ، التى بناها فى هذا العصر وما اندمج فيها من طرق جدال وحوار ، على كل ما أراد من تحوير وتوليد فى المعانى .

وربما كان أهم شىء رسَب فى الشعر الأموى عن هذه العقلية الجديدة أننا نجد الشعراء يتخصصون فى موضوعات بعينها ، لا يَعْدونها إلى غيرها، فعمر بن ابن أبى ربيعة يذهب شعره فى الغزل ، وذو الرمة يذهب شعره ، أو يكاد ، فى وصف الصحراء ، ويرتق الفرزدق وجرير بفن الهجاء ويُحدِثان فيه النقائض المعروفة .

ولا شك فى أن هذا أثر من آثار العقلية العربية فى العصر الأموى وما أصابها

---

(١) وجرة : موضع كثير الوحش . وأكارعه : قوائمه ، ووشيها : بياضها مع انتشار نقط سوداء فيها . والمصير : المعى ، كنى به عن البطن . الفرد : المنفرد .

(٢) الديوان ص ٩١ .

(٣) المعلقات العشر ص ٩٤ .

(٤) الحيوان ٦/٥٠٩ .

من تطور ، فقد أخذ الناس يعيشون فى نِحَل ونظريات معينة ، كنظرية الخوارج ونظرية الشيعة ونظرية الجبر أو القدر ، يودعون فيها حياتهم كلها ولا يَعْدونها إلى غيرها ، فتأثَّرهم الشعراء وحوَّلوا موضوعات الشعر إلى ما يشبه النِّحْلة من النِّحَل ، وعاشوا فى الموضوع ، الذى اختاروه أو كادوا ، حياتهم كلها .

وليس هذا كل ما أحرزه الشعر فى العصر الأموى عن طريق العقلية الجديدة وما شاع من بحث ودرس للمسائل وما كان من الصلة بين الشعراء وبين المحدِّثين والفقهاء والمتناظرين فى الإرجاء والجبر والقدر . فهناك جانب تعليمى فى هذا الشعر لم نتحدث عنه حتى الآن ، وذلك أن الناس أخذوا يتخصصون فى اللغة العربية نفسها وما يتصل بها من الشعر والأيام ، ثم من نحوها ولغتها ، فوُجِدت طبقة من الأدباء المعلِّمين ، ولم يلبث أن انتظم فيهم بعض الشعراء مثل الطِّرِمَّاح وكان مؤدِّبًا للصبيان فى الكوفة والرَّىِّ [1] ومثل الكُمَيْت ، وكان أيضًا من المؤدبين المعلمين [2] .

والطريف أن وظيفة هؤلاء المعلمين وما يراد منهم من تثقيف الناشئة باللغة اضطرتهم إلى أن يؤلفوا كثيرًا من شعرهم لهذه الغاية نفسها . ومن يرجع إلى ديوان الطرماح يستطيع أن يلاحظ فى وضوح أن شعره يمكن أن يُقسَّم قسمين : قسما واضحا فيه مديحٌ وهجاء ، وقسما غير واضح فيه حديثٌ عن الصحراء وكل ما يتصل بها ، وهو شعر أريد به قبل كل شىء إلى تعليم اللغة بغرائبها وأوابدها .

وهذه ظاهرة جديدة لم تكن مألوفة فى الشعر العربى قبل العصر الأموى عصر الدرس والتعليم ، فقد أخذ الشعر فى بعض جوانبه أو قصائده يُعَبِّر لا عن حاجة وجدانية ، وإنما عن حاجة لغوية . على أن طبقة المقصِّدين من أمثال الطرماح والكميت لم تبلغ فى هذا الباب من التعليم اللغوى ما بلغته طبقة الرُّجَّاز من أمثال رؤْبَة ، فمن يتعقب أخبارهم فى كتب الأدب يلاحظ أن من أهم غاياتهم فى شعرهم خدمةَ اللغة والمؤدِّبين أو اللغويين القائمين عليها بما يمدونهم من الشواذ والشوارد بحيث أصبحت بعض أراجيزهم كأنها متون لغوية للحفظ والتسميع !

وأكبر الظن أنه قد اتضح الآن مدى ما أصاب التفكير الفنى عند الشاعر

---

(١) البيان ٢/٣٢٣ .

(٢) الشعر والشعراء ص ٣٦٨ .

الأموى من رقى وتطور ، فقد أخذ يلتحم هذا التفكير بكل ما كان فى العصر من ثقافة فكرية أو عقلية . فالبناء الفنى للشعر لم تنفصل وحداته عن البناء العقلى العام بل قل إن هذا البناء أخذ يتشكل فى أوضاع جديدة تحت تأثير الرقى الفكرى الذى أصاب العقلية العربية .

٣

الحياة السياسية

لم تكن الحياة السياسية فى عصر بنى أمية حياة هادئة ، بل كانت حياة ثائرة ، إذ كان الأمويون يُعَدُّون فى رأى كثير من الأمة الإسلامية غاصبين للخلافة ، والبلد الوحيد الذى كان هادئًا إلى حد ما هو الشام ، فقد وجد أهله من بنى أمية ورثة شرعيين لآل جَفْنة ، واستطاعوا عن طريقهم أن يحققوا ما لم يكونوا يحلمون به فى القديم ، إذ أشرفوا وسادوا لا على العراق ، مركز المناذرة خصومهم فى الجاهلية ، فحسب ، بل على العالم الإسلامى كله .

وإذا تركنا الشام إلى الحجاز والعراق وجدنا فيهما فنونًا من السخط على بنى أمية وحكومتهم ، وسرعان ما تكوّن تحت تأثير هذا السخط أحزاب سياسية ثلاثة كانت تعارض بنى أمية وتخاصمهم وتدعو إلى الانتقاض عليهم ، وهى أحزاب الزُّبَيْريين والخوارج والشيعة . وقد تألفت هذه الأحزاب حول فكرة الإمامة أو الخلافة ومن أحقُّ بها من المسلمين . أما حزب الزبيريين وهم أتباع عبد الله بن الزُّبَيْر فكان يرى أن تعود الخلافة إلى الحجاز ، وأن يتولاّها أحد أبناء الصحابة الأولين لا يزيد بن معاوية . بينما كان حزب الخوارج فى العراق يرى أن تُرَدّ الخلافة إلى العرب والمسلمين جميعًا ، ليولُّوا عليهم أكفأهم وأجدرهم بها . وكان بجوارهم فى العراق أيضًا حزب الشيعة وكان يرى أن تُرَدّ الخلافة إلى بنى هاشم ، فهم بيت الرسول ، وهم أصحابها الحقيقيون.

وحزبُ الزبيريين فى الحجاز هو أقصر هذه الأحزاب عُمْرًا ، فقد ظهر مع

دعوة ابن الزبير لنفسه بالخلافة بعد وفاة معاوية ، حتى إذا تُوُفِّى يزيد أجابته الحجاز كلها ، كما أجابته مصر والعراق وبعض بلدان الشام . ولكن لا نكاد نمضى بعد ذلك حتى نجد مَرْوان بن الحكَم يظهر فى الشام ومعه كَلْب والقبائل اليمنية ؛ فيقضى هناك على قبائل قَيْس فى موقعة مَرْج راهِط المشهورة ، التى تُعَدُّ صِفِّينًا ثانية ، ويصبح الشام خالصًا له ، ويستولى على مصر . ثم يتولى الخلافة من بعده ابنه عبد الملك ، فيقتل مصعب بن الزبير ، والى أخيه عبد الله على العراق ، ويرسل الحجاج إلى ابن الزبير فى مكة فيحاصره ثم يقتله . وبقتل عبد الله بن الزبير ينتهى هذا الحزب الذى استمر نحو ثمانى سنوات ؛ وهى مدة قليلة لا تكفى لتكوين نظرية سياسية ، أو بعبارة أدق لم تتكوَّن فى أثنائها نظرية سياسية واضحة المعالم . ولذلك كان هذا الحزب أضعف الأحزاب فى هذا العصر من حيث تمثيل فكرته عند الشعراء ، وأكثرُ ما تكوَّن حوله من شعر نجده فى حروب القيسية واليمنية فى الشام . وفى الجزء الخامس من أنساب الأشراف للبلاذرى حَظٌّ لا بأس به من هذا الشعر ، وهو ليس شعر حزب بالمعنى المفهوم ، وإنما هو هجاء وحماسة على نحو ما كان الشعر فى العصر الجاهلى .

وأهم شاعر اتصل بهذا الحزب واشتهر بزبيريته هو ابن قَيْس الرُّقَيَّات ، فقد اتصل بمُصْعَب ؛ وتخصص به حتى كاد يكون شاعره ، وله فيه مدائح كثيرة ، وقد ذهب يتغنى بزوجتيه سُكَيْنة بنت الحسَين وعائشة بنت طَلْحة ، وما امتازتا به من جمال باهر ، وفى الوقت نفسه كان يتغزل غزلا مُفْحِشًا بأمِّ البنين زوجة الوليد بن عبد الملك ، يُريد أن يُسْقطها من عليائها على سفح غزله الفاضح ، وفى شعره ثورة واضحة على عبد الملك وأصحابه من أهل الشام من مثل[1] :

كيف نَوْمى على الفِراش ولما تَشْمَلِ الشامَ غارةٌ شعواءُ
تَذْهِلُ الشيخ عن بَنِيه وتُبدى عن بُرَاهَا[2] العقيلةُ العذراءُ

ولكنا قلما نجد بعد ذلك فى ديوانه شيئًا واضحًا عن حقيقة هذا الحزب وأسُس

---

(١) الديوان ص ٩٥ وانظر الأغانى (طبع دار الكتب) ٥/٧٨ .

(٢) البرى : الخلاخيل ، والعقلية والعذراء هنا : السيدة الكريمة .

دعوته ، وأكبر الظن أننا لا نعدو الحقيقة حين نزعم أن هذا الحزب لم تتكوّن له نظرية سياسية قوية الدعائم .

وإذا كانت نظرية الزبيريين لم تأخذ فرصة واسعة كى تدعم جوانبها السياسية فإن حزبى الخوارج والشيعة أتيح لكل منهما أن يدعم نظريته فى الخلافة وأن يسندها بالأدلة البينة لسبب بسيط ، وهو أنهما لم يكونا حزبين عارضين فى تاريخ هذا العصر كحزب الزبيريين ، بل كانا حزبين ثابتين مستقرين .

ومن يتعقب الحوادث يستطيع أن يلاحظ ظهور حزب الخوارج منذ مقتل عثمان ، فالذين ثاروا عليه من أهل العراق وشاركوا فى قتله يمكن أن نعدهم مقدمة هذا الحزب وبذوره الأولى ، وهى بذورٌ اكتنّت بعد مقتل عثمان والبيعة لعلى بن أبى طالب ، حتى إذا رضى بالتحكيم هبُّوا فى وجهه ، كما هبوا سابقًا فى وجه عثمان ، وكفّروه كما كفروا سلفه ، محتجين بمثل قوله تعالى : (فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله) وقوله جلّ وعز : (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون» . وقالوا لا حُكْم إلا لله ، وكأنهم أرادوا أن يردوا الدين والدولة إلى الله ، واعتزلوا عليا إلى حَرُورَاءَ بقرب الكوفة وكأنهم أرادوا أن يهاجروا عن الجماعة الضالة على نحو ما هاجر الرسول صلى الله عليه وسلم عن أهل مكة[1] .

وسُمّوا الخوارج لأنهم خرجوا على إمامهم الذى بايعوه ، وهو علىّ ، وقيل بل هم الذين سمّوا أنفسهم هذا الاسم من قوله تعالى : (ومن يخرجْ من بيته مهاجرًا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت ، فقد وقع أجْرُه على الله) . وسموا أنفسهم الشُّراة أيضًا من قوله عز وجل : (ومن الناس من يَشْرِى نفسه ابتغاءَ مرضاةِ الله) ويسمون الحَرُورِيّة نسبة إلى حَرُوراء التى اعتزلوا فيها عليًّا وجيشه أولا .

وأساس مبادئهم جميعًا أن لا تُقْصَرَ الخلافة على قريش ، فالخلافة ليست حقًّا لقريش بل هى حق لله ، وينبغى أن يتولاها خير المسلمين تقوى وزهدًا وورعًا ولو لم يكن قرشيًّا بل لو كان عبدًا حبشيًّا . وقد خرجوا على المسلمين واعتبروا دارهم دار حَرْب فيجب أن يجاهدوهم ، واستمروا فى هذا الجهاد طوال عصر

---

(١) انظر هنا Wellhausen, The Arab Kingdom and its Fall (University of Calcutta, 1927) p.64

بنى أمية . وكانوا بالمرصاد دائماً لمن يولّونهم عليهم من أنفسهم ، بحيث إذا عدلوا عن الجادّة راجعوهم ، فإن رجعوا تركوهم وإلا عزلوهم ،شأنهم سابقًا مع عثمان وعلى . ومما يلاحَظ عليهم أنهم كانوا سرعان ما يختلفون ويفترقون، وقلما اتفقوا على إمام، ولذلك تعددت فِرَقهم ، وأهمها أربعة: الأزارقة ، والنَّجدات ، والصُّفْرِيَّة ، والإباضِيَّة .

والأزارقة هم أتباع نافع بن الأزرق ثم قَطَرِىّ بن الفُجَاءَة . ومن أهم مراكزهم البطائح بالقرب من البصرة . وقد استولوا على فارس وكِرْمان ودوّخوا عبيد الله بن زياد والى معاوية وابنه يزيد ، واستمروا حتى أرسل إليهم مصعبُ بن الزبير المهلبَ ، فما زال يحاربهم حتى ظفر بهم فى عهد الحجاج . أما النَّجَدَات فهم أتباع نَجْدة بن عامر الحنفى ، وكان مَسْرَحُ نشاطهم اليمامة وحَضْرَمَوْت والبحرين ، ورماهم الحجاج بعمر بن عبيد الله بن مَعْمَر فهزمهم وقضى عليهم قضاءً مبرمًا . وأما الصُّفرية فهم أتباع زياد بن الأصفر ، وكان مسرح نشاطهم الموصل وبلاد الجزيرة ، واشتبكوا مع الحجاج فى حروب كثيرة ، ومن قوادهم شَبِيب الشيبانى الذى حارب الحجاج طويلا ، وشَوْذَب الذى ثار فى عهد عمر ابن عبد العزيز ، والضحاك بن قَيْس الذى ثار فى الأيام الأخيرة لبنى أمية . وأما الإباضية فهم أتباع عبد الله بن إباض التميمى ، وكان مسرح نَشاطهم حضرموت واليمن ، ومن أهم قوادهم أبو حمزة الذى استولى على المدينة ومكة وخطبَ فى الأخيرة خطبته المشهورة[1]، ولم تلبث جنود مروان بن محمد أن قتلته .

وإذا كنا لم نجد للزبيريين شعراء يمثلون نظريتهم فإن شعراء الخوارج كثيرون كثرة مفرطة ، وتمتلىء كتب الأدب بأشعارهم ومقطوعاتهم ، وهى تَسيل حماسة وبطولة ومن أهم ما يميِّزهم حقا أنهم كانوا حزبًا فدائيًا، فكل منهم يُقْبِل على الموت وكأنه طلِبَتُه أو أمنيته ، وقد بلغ من شدة إيمانهم بمذهبهم ونظريتهم أن دوّخت فئات قليلة منهم جموعًا غفيرة للأمويين وولاتهم فى العراق . ومما يُرْوَى

(١) انظر البيان والتبيين ٢/١٢٢ والإباضية لا يزالون موجودين إلى اليوم ، وهم منتشرون فى طرابلس والجزائر وعمان وزنجبار .

من ذلك أن أبا بلال خرج فى أربعين بالأهواز لعهد عبيد الله بن زياد ، فرماه بجيش مؤلف من ألفى رجل ، فثبّت الأربعون وفرَّ الألفان ، وفى ذلك يقول أحد شعرائهم[١] :

أألفـا مؤمنٍ منكمْ زعمتم ... ويقتلهم بآسَكَ[٢] أربعونا
كذبتمْ ليس ذاك كما زعمتم ... ولكنّ الخوارج مؤمنونا
همُ الفئةُ القليلة قد علمتم ... على الفئة الكثيرة يُنْصَرونا

وهو يشير بذلك إلى قوله تعالى : (يا أيها النبي حَرِّض المؤمنين على القتال إنْ يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفًا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون) ، وقوله عزَّ وجل : (كم من فئةٍ قليلة غلبتْ فئةً كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين) .

ويمتاز شعر هذا الحزب الفدائى بأنه ينفذ إلى القلوب نفوذًا ، فهو شعر يصدر عن عقيدة وإيمان بالغ بهذه العقيدة ، إذ آمن كل خارجيّ أنه يدافع عن حقوق الله والإسلام ، وأنه إن لم يخرج حقّت عليه اللعنة بل حقت عليه النار ، ومن هنا يقول الطرماح[٣] :

لقد شقيتُ شقاءً لا انقطاعَ له ... إن لم أفُزْ فَوْزَةً تُنْجِي من النارِ
والنارُ لم يَنْجُ من روعاتها أحدٌ ... إلا المنيبُ بقلب المخلص الشّارى

فهو يرى الظلام مطبقًا عليه من كل جانب إلا أن يفوز بهذا النور الذى يراه عند الشُّراة أو الخوارج، والذى يرجو أن يظفر به حتى ينجو من روعات النار ، وكأنه يعتقد أن النار أعِدّت لمن لا يخرج ، ويترك فئات المسلمين الضالة فى رأيه ! وقد ذهب يُشيد بالخوارج إشادة بالغة فى مثل قوله[٤] :

لله درُّ الشُّراة إنهمُ ... إذا الكَرَى مال بالطُّلا[٥] أرقوا
يُرَجِّعـون الحنـين آونةً ... و إن علا ساعةً بِهم شهقوا
خوفًا تبيت القـلوبُ واجفةً ... تكاد عنها الصدور تنفلِقُ

(١) طبرى (طبع أوربا) ٢/١٨٧ .
(٢) آسكِ : موضع بهمذان .
(٣) الديوان ص ١٤٩ .
(٤) الديوان ص ١٥٧ .
(٥) الطلا : جمع طلية وهى أصل العنق .

كيف أرَجِّى الحياة بعدهمُ ... وقد مضى مؤْنسىّ فانطلقوا
قومٌ شِحاحٌ على اعتقادهمِ ... بالفوز مما يُخاف قد وثقوا

وهذه صورة رائعة للخوارج ، إذ نرى الطرماح يصورهم مسهَّدين يتلون آيات الله ، ويشهقون فى تلاوتها كلما مروا على آية كريمة بها ذكرٌ لعذاب ، فالقلوب تبيت واجفة من خوف ربها حتّى لتكاد الصدور تشقَّق عنها ، وهم يموتون مستشهدين فى هذه العقيدة التى عُرفوا بها ، وإنهم ليسترخصون أرواحهم فى سبيلها واثقين من فوزهم برضوان ربهم وجِنانه ، وإن الطرماح ليتمنى أن تكون خاتمته كخاتمتهم ، واستمعْ إليه يقول[1] :

أذا العرْشِ إن حانتْ وفاتى فلا تكن ... على شَرْجَعٍ[2] يُعْلَى بخُضْرِ المَطَارِفِ
ولكن أحِنْ يومى سعيدًا بعُصْبَةٍ ... يصابون فى فَجٍّ من الأرض خائفِ
عصائبُ من شتّى يؤلِّف بينهمْ ... هُدَى الله نَزَّالون عند المواقفِ
فوارسُ من شيبان ألّف بينهم ... تُقَى الله نزالون عنـد التزاحفِ
إذا فارقوا دنياهمُ فارقوا الأذى ... وصاروا إلى موعود ما فى المصاحفِ
فأقْتَلَ قَعْصًا ثم يُرْمَى بأعظُمى ... كضِغْثِ الخَلاَ بين الرياح العواصفِ
ويصبح لحمى بين طيرٍ مَقِيلُهُ ... دُوَيْنَ السماء فى نُسُورٍ عواكِفِ

فهو يدعو ربه أن يكتب له الشهادة فى معترك الحرب وأن لا يموت حتف أنفه ، فيحمل فى نعش على أكُفّ الرجال . إنه يريد أن يموت كإخوانه من شيبان ، وهم الذين تتألف منهم أكثر طائفة الصُّفْرية ، فهو صُفْرىّ ، وهو يثْنى على أصحابه ويصفهم بالتقوى ، وأن هدى الله ألف بينهم . ويقول إنهم يستعذبون الموت فى سبيل عقيدتهم ، وإن كلامنهم ليتمنَّى أمنية الطرماح أن يُقْتَل قَعْصًا ، أى يقتل فى مكانه بالسيوف ، وأن يُرْمَى بأعظمه كضغث الخلا أو قبضة الكلأ ؛ فتذروه الرياح ، أو تنحطّ إليه طير السماء ، حتى تم له التضحية فى سبيل عقيدته .

وهكذا شعر الخوارج فى هذا العصر شعر يعبِّر عن فدائية خالصة ، فهو كله

(١) الديوان ص ١٥٥ .

(٢) الشرجع : النعش .

بطولة ، وحماسة . واستبسال فى سبيل العقيدة ، وإقبال على حياض الموت الزؤام دون خوف أو وجل ، بل فى رضًا وطمأنينة واستبشار بغفران الله ! . وما أظننا نبعد فى وصفنا لهم بأنهم كانوا فدائيين ؛ فقد باعوا أنفسهم حقا فى تحقيق فكرتهم ، وطلب كل منهم أن لا يموت فى فراشه بل يموت قعصًا بالرماح ، وتتخطفه الطير والسباع كما يقول الطرماح .

وشعر الخوارج كله يذهب هذا المذهب من الحماسة ، وهى حماسة دينية ؛ فقد آمنوا بعقيدتهم واعتقدوا خطأ أن المسلمين ضلوا سواء السبيل ، أما هم فعلى الصراط المستقيم الذى تريده العناية الإلهية ! وهم يريدون أن يلووا المسلمين إليهم ؛ ولذلك يحاربونهم مستبسلين ، وكل منهم يريد أن يموت شهيدًا فى ساحة هذا الجهاد الدينى الذى وهبوا أنفسهم له .

وكان يقابل حزب الخوارج فى العراق حزبُ الشيعة ، وهو لا يقل أهمية عنه ، بل لعله أبعد منه خطرًا فى تاريخ الأمة الإسلامية . ويمكن أن نجد بذور هذا الحزب منذ أفضت الخلافة إلى أبى بكر وعمر ؛ فإن الحوادث التى وقعت بعد ذلك وانتهت بقتل عثمان تدل على أن بنى هاشم كانوا يطمحون إلى الخلافة ، وأيضًا فإن الناس حين سخطوا على عثمان أخذ كثير منهم يبحثون سرا عن خليفة جديد ، وكان علىٌّ أحدَ من اتجهت إليه الأنظار ، بل لقد أخذت تتكوّن له بطانة ، وهى التى سميت فيما بعد بالشيعة .

ومعنى ذلك أن الشيعة أخذوا فى الظهور بشكل واضح قبل أن يُقتَل عثمان ، فلما قُتِل أسرعوا إلى على وبايعوه بالخلافة . ومن حينئذ تكوّن هذا الحزب تكوُّنًا سياسيًّا ، وكان من أهم مبادئه أن يُختار على للخلافة بصفته من بنى هاشم الذين ينبغى أن تكون الخلافة خالصة لهم من دون الناس ، فهم آل الرسول . وهم لذلك أولى الناس وأحقهم بخلافته .

ولما انتقل على إلى العراق واتخذ الكوفة حاضرة له كان من الطبيعى بعد ذلك أن تصبح حاضرةَ هذا الحزب ، وقد أخذ يشايعه هناك كثير من أهل العراق بحكم أنه إمامهم . ثم بحكم أنه نقل دولته إليهم ، فقد جعل الدولة العربية كلها دولتهم ،

ولذلك كان اسم على بعد قتله وتحوُّل الخلافة إلى الشام يرمز إلى دولتهم المفقودة[١] . وقد وجد الموالى فى العراق من النَّبَط والفرس وغيرهما فى ظل علىّ ما لم يحققه لهم الأمويون ، إذ كان يذهب إلى المساواة بينهم وبين العرب فى الحقوق . فكان هذا كله سببًا فى أن تصبح العراق وأن تصبح الكوفة بنوع خاص مركز التشيع لعلى وآله .

ونستطيع بذلك أن نفهم كثرة الثورات فى العراق فى أثناء هذا العصر ، فأهله لم يكونوا من هَوَى بنى أمية بل كانوا مغاضبين لهم ، وكانوا يثورون مع أول ثائر ، وقد ثاروا مرارًا على الحجاج ، وثورةُ عبد الرحمن بن الأشعث عليه مشهورة ، وفى أوائل القرن الثانى للهجرة ثار يزيد بن المهلَّب . وهى ثورات تدل على أن أهل العراق لم يكونوا راضين عن بنى أمية ، وكانوا ينتهزون أى فرصة للخروج عليهم .

ولم تقم للشيعة فى العراق ثورةٌ منظمةٌ فى أثناء هذا العصر إلا ما كان من ثورة المختار الثَّقَفى لعهد مصعب بن الزبير ، وسرعان ما قُضِىَ عليه وانتهت هذه الثورة . واتجه الشيعة منذ مقتل المختار إلى الدعوة السرية . والمتعقِّبُ لحركاتهم فى عصر بنى أمية يفاجأ مفاجأة بحركة أبى مسلم فى خراسان ودعوته هناك ونجاح هذه الدعوة ، مما يدل دلالة صريحة على أن خراسان كانت قد أصبحت مركزًا مهمًّا من مراكز الدعوة الشيعية ، ولكن كيف انتقل التشيع هناك ؟ يقول ڤلهوزن إن زيادًا والحجاج هما اللذان نقلاه هناك فإنهما دأبا على إرسال الجيوش العراقية إلى خراسان ، وبعثا معها بالعناصر المشاغبة فى الكوفة والبصرة ، فأعدَّا بذلك لدخول التشيع هناك وانتشاره[٢] .

وأساسُ عقائد الشيعة الإمامة وأنها من حقوق البيت النبوىّ ، وقد ذهبوا إلى أن إمامة على نصَّ عليها الرسول عليه السلام ، فقد أوصى له ، ومن هنا تأتى عقيدة الوصية التى يدين بها الشيعة جميعًا ، كما يدينون بأن أئمتهم يمتازون بصفات روحية كثيرة ، فهم معصومون ، وعندهم من العلم كل ما يحتاج إليه الناس فى دينهم ودنياهم . وفى خطاب موجَّه من هشام بن عبد الملك إلى يوسف بن عمر الثقفى واليه

(١) انظر كتاب ڤلهوزن السابق ص ٦٦ .

(٢) كتاب ڤلهوزن ص ٤٩٩ .

على العراق : « أما بعد فقد علمتَ بحال أهل الكوفة فى حبِّهم أهل هذا البيت ووَضْعِهم إياهم فى غير مواضعهم ، لأنهم افترضوا على أنفسهم طاعتهم ، ووظَّفوا عليهم شرائع دينهم ونحلوهم عِلْمَ ما هو كائن[١] » .

ومن عقائد الشيعة التى لعبت دورًا مهمًّا فى هذا العصر عقيدةُ المهدىّ ، وهو الإمام الذى ينقذ العالم مما فيه من شرور وآثام . وكان زعماؤهم يُشيعون دائمًا أن هذا المهدى أو المخلِّص سيأتى ، ويُخرج الناس مما هم فيه من ظلام وعذاب . وساعد على شيوع ذلك ما اتصفت به العقيدة الشيعية من سرية ، وهى سرية جرَّت فى أعقابها عقيدة التقيَّة ، أو المداراة ، وأن من حق الشيعىّ أن يخفى تشيعه .

وأخذت تدخل فى التشيع آراء وأفكار غالية . وعبد الله بن سَبَأ أهم شخص أدخل ذلك ، وكان يهوديًّا من اليمن أسلم ، واشترك فى الثورة على عثمان وكان يتنقَّل فى الأمصار الإسلامية ويؤلب الناس عليه ، وكان يزعم أن فى علىّ جزءًا إلهيًّا ، وكأنه يتأثر ما عند النصارى من فكرة اتحاد اللاهوت بالناسوت . وهو أول من قال برَجْعَة على ، وأنه لم يمت ، وكأنه يتأثر فى ذلك بما عند اليهود من أن النبى إيليا قد رُفع إلى السماء ، وأنه لا بد أن يعود إلى الأرض فى آخر الزمان لإقامة العدل والحق . وكان يزعم أن عليًّا يجئ فى السحاب ، وأن الرعد صَوتُه ، والبرق سَوْطه[٢] .

ولعل فى آراء ابن سبأ ما يشير إلى أن عناصر أجنبية أخذت تدخل فى التشيع ، حتى ليزعم بعض الباحثين أن غلاة الشيعة بَثُّوا فى التشيع مع مر الزمن كثيرًا من دياناتهم الأولى ، فدخلت فيه عناصر من اليهودية والنصرانية كما عند ابن سبأ ، ودخلت فيه عناصر من الزرادشتية والمانوية الفارسيتين ومن البوذيَّة الهندية[٣] .

ونحن لا يهمنا هنا البحث فى عقيدة الشيعة من حيث هى ، وإنما يهمنا صلتها بالشعر فى عصر بنى أمية . ومن المعروف أن الشيعة كالخوارج تتعدد فِرَقهم ، وهناك فرقتان اشتهرتا فى هذا العصر واتضحتا فى شعر الشعراء ، إحداهما غالية وهى

---

(١) طبرى ٢/١٦٨٢ .
(٢) الشهرستانى ص ١٣٢ .
(٣) السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات (الترجمة العربية) ص١٢١ والعقيدة والشريعة فى الإسلام لجولد تسيهر ص ١٧٤ وما بعدها .

فرقة الكَيْسانِيَّة ، والثانية معتدلة ، وهى فرقة الزَّيْدِيَّة .

أما فرقة الكيسانية فزعيمها المختار الثقفى الذى ثار فى العراق ، وعلا شأنه ، حتى قضى عليه مصعب بن الزبير . ولم يكن يدعو لأحد من أبناء فاطمة إنما كان يدعو لمحمد بن الحنفية من علىّ ، وكان يزعم أنه هو الذى أوصى له أبوه من بعده . ويظهر أنه رأى أن أبناء فاطمة لا يرتضون الغلوّ فيهم ، فقد أنكر الحسن رجعة أبيه[1] ، وأنكر بعض أبناء الحسين فكرة الوصية[2] ، فعدل إلى ابن الحنفية وتَبع ابنَ سَبأ فى كثير مما زعمه . وكان يميل إلى الشعوذة ، فادعى أنه يُوحَى إليه ، واتخذ كرسيًّا قديمًا غَشَّاه بالديباج ، فكان يضعه فى مقدمة جيوشه ، ويقول لأنصاره : قاتلوا عليه فهو منكم بمنزلة التابوت فى بنى إسرائيل ، وكان يُرْسل حمامات بيضاء على جيوشه فى أثناء القتال ، ويزعم أنها ملائكة تَنَزّل عليهم من السماء ، وفى ذلك يقول سُراقة البارقى[3] :

ألا أبلغْ أبا إسْحق أنى ... رأيت البُلْقَ دُهْمًا مُصْمَتاتِ
كَفَرْتُ بوحْيِكم وجعلت نَذْرًا ... علىّ قتالكم حتى المماتِ

ويقول أعشى هَمْدان[4] :

شهدتُ عليكم أنكم سَبَئِيَّةٌ ... وإنى بكم يا شُرْطَةَ الشِّرْكِ عارفُ
وأقسم ما كُرْسِيُّكُم بسَكينةٍ ... وإن كانَ قد لُفَّتْ عليه اللفائفُ

وشاعر هذه الفرقة المشهور كُثَيِّر ، ويقول أبو الفرج فيه : « كان غاليًا فى التشيع يذهب مذهب الكيسانية ، ويقول بالرَّجْعة والتناسخ » . وفى ديوانه مدائح كثيرة فى ابن الحنفية ، وفيه يقول[5] :

وصىُّ النّبِىِّ المصطفى وابنُ عَمّهِ ... وفكّاكُ أغلالٍ وقاضى مغارمِ

ويقول[6] :

هو المهدىّ خَبَّرَنَاه كَعْبٌ ... أخو الأحْبَار فى الحِقَبِ الأوائل

---

(١) ابن سعد ج ٣ ق ١ ص ٣٦ .
(٢) ابن سعد ٥ / ١٥٨ وكذلك ٥ / ٣٢٩ .
(٣) طبرى ٢ / ٦٦٠ .
(٤) طبرى ٢ / ٧٠٤ .
(٥) الديوان ١ / [illegible] .
(٦) الديوان ١ / [illegible] .

وكان يعتقد فى الرَّجْعة أشد اعتقاد ، فلما توفىَّ ابن الحنفية لم يؤمن بوفاته ، وذهب يُنادى فى الناس[١] :

ألا إن الأئمــَّـةَ من قريشٍ ولاةَ الحقِّ أربعةٌ ســواءُ
علىٌّ والثــلاثةُ من بنيــه همُ الأسباط ليس بهمْ خفَــاءُ
فسِبْطٌ سبط إيمــان وبِرٍّ[٢] وسِبْطٌ غيَّبَتْـــهُ كَرْبَلاءُ[٣]
وسِبْطٌ لا تراه العينُ حتَّى يقــودَ الخيلَ يَقْدُمُهــا اللِّواءُ
تَغَيَّبَ لا يُرَى عنهم زمانًا بِرَضْوَى عنــده عَسَلٌ وماءُ

فهو يؤمن بغيبة ابن الحنفية فى جبل رضوى ، وأنه لم يمت ، بل هو يُمضى الفترة المعروفة عند غالية الشيعة بالوقوف ، ثم يرجع ومعه الخيلُ يقدمها اللواء . وهكذا نجد فى ديوان كُثَيِّر هذه الصفحة الجديدة التى تعبِّر عن عقيدة الكيسانية ، وكل ما يتصل بها من غلوّ وإغراق فى الغلوّ .

وإذا كانت فرقة الكيسانية غالية على هذا النحو فإن فرقة الزيدية كانت معتدلة ، وإمامها زيد بن على بن الحسين ، الذى خرج على هشام بن عبد الملك بالكوفة فقُتِل وصُلِب . ويسوق زيد وشيعته الإمامةَ فى أولاد على من فاطمة فقط ، وهم لا يُسْبغون على الإمام صفات روحية تفْصِله عن البشر ، فكل ما يصفونه به العلم والزهد والسخاء والشجاعة . وقد أجازوا إمامة المفضول مع قيام الأفضل ، فكان زيد لا يتبرأ من أبى بكر وعمر ، بل كان يرى أن ولايتهما صارت رَشَدًا وهُدًى لبيعة على لهما ورضاه بهما[٤] . وقد تتلمذ زيد لواصل فاقتبس منه الاعتزال ، كما مرّ فى غير هذا الموضع ، وبذلك غلب الاعتزال على أصحابه .

وشاعر الزيدية المشهور الكُمَيْت بن زيد الأسدى ، وفى شعره ثورة شديدة على الأمويين ، يتأثر فيها إمامه زيدًا الذى ثار فعلاً عليهم وقتلوه ، واستمعْ إليه يقول[٥] :

---

(١) الديوان ٢/١٨٦ والأغانى (طبع دار الكتب) ٩/١٤ .
(٢) يريد الحسن بن على .
(٣) يريد الحسين الذى قتل فى كربلاء على بعد خمسة وعشرين ميلا إلى الشمال الغربى من الكوفة .
(٤) الشهرستانى ص ١١٥ .
(٥) البيان والتبيين ٣/٣٦٥ .

فقـــلْ لبنى أميّة حيث حلّوا ... وإن خفتَ المهنّـــدَ والقَطيعا[1]
أجاعَ اللهُ مـــن أشـــبعتموهُ ... وأشـــبع من بجوركمُ أُجيعـــا
بمرضىِّ الســيـــاسة هاشميٌّ ... يكون حيًّـــا[2] لأمّتـــه ربيعا

وستحدث عنه حديثًا مفصلاً فى موضع آخر ، فقد ألف فى مذهبه الزيدى ديوانًا خاصًّا يُعْرَفُ باسم (الهاشميات) وهو أقدم وثيقة بين أيدينا عن هذا المذهب ففيه كل ما آمن به زيد ودعا إليه ، وقد طُبع بطابع الحِجَاج والجدال فى الدفاع عن حقوق آل البيت ، واصطبغ بصبغة عقلية جاءت صاحبه من اعتزاله واتصاله بمناقشات القَدَر والجَبْر وأن منزلة صاحب الكبيرة بين منزلتين وما إلى ذلك .

ولم نتكلم حتى الآن عن حزب بنى أمية ، وهو حزب الدولة والحكومة ، وكان يندمج فيه أهل الشام وكثير من أهل البلدان الأخرى ، فهو حزب السواد الأعظم وكان لهذا الحزب الذائدون عنه والمدافعون الذين يَدْفَعون خصومه من الزبيريين والخوارج والشيعة ، بل الذين يغالون فى هذا الدفاع وذلك الذَّوْد . فقد انقسم الناس أو قل انقسمت الأمة قسمين ، إذا أغضينا النظر عن الزبيريين فقد كان حزبهم عارضًا وكذلك عن الخوارج ، فقد خرجوا على جمهور الأمة . أما عامة الناس فكانوا على قسمين : قسم مع بنى هاشم وهو الشيعة ، وقسم مع الأمويين وكانوا يُضْفون عليهم من صفات الإمامة ما يُضفيه الشيعة على أئمتهم ، وإلى ذلك يشير ابن الحنفية إذ يقول : « أهل بيتين من العرب يتخذهما الناس أنداداً من دون الله نحن وبنو عمّنا هؤلاء يعنى بنى أمية[3] » .

فهذا الحزب الأموى كان يرفع من شأن خلفاء بنى أمية ، وينزلهم منزلة عُليا ، فهم خلفاء الله ورسوله فى أرضه ، وطاعتُهم واجبة ، ونُصْرَتُهم محتّمة . ونجد هذه النزعة واضحة فى خُطَب ولاة بنى أمية وقوّادهم ، ومن أطرف ما يصوّرها خطبة زياد حين ولاّه معاوية على البصرة ، وهى الخطبة الموسومة بالبَتْراء ، فقد جاء فيها : « أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله

(١) المهند : السيف . والقطيع : السوط .
(٢) الحيا : الغيث .
(٣) ابن سعد ٥ / ٦٨ .

الذى أعطانا ، وننود عنكم بفَيْء الله الذى خَوَّلنا . فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحْبَبْنا ، ولكم علينا العدل والإنصاف فيما ولينا، فاستوجبوا عدلنا وفَيْئَنا بمناصحتكم لنا . . . وادعوا الله بالصلاح لأئمتكم، فإنهم ساستكم المؤدّبون ، وكَهْفُكم الذى إليه تأوون[١] » .

وواضح أن زياداً يقول فى صراحة إن معاوية وولاته خلفاء الله فى الأرض؛ فهم يسوسون الناس بسلطانه ، وينودون عنهم بفَيْئه ، أو هم بعبارة أخرى أصحاب الحق الإلهى فى هذه السياسة وتلك الحكومة التى يحكمون بها الناس . ويَرْوى الرواة أن مسلم بن عُقْبة ، قائد أهل الشام فى حربهم لأهل المدينة حين ثاروا على يزيد بن معاوية ، خطب فى جيشه وهو على أبواب المدينة فقال : « يا أهل الشام أهذا القتالُ قتال قومٍ يريدون أن يدفعوا به عن دينهم ، وأن يُعِزُّوا به نَصْرَ إمامهم[٢] » . وقد حارب أشْياع عُبيد الله بن زياد الحسينَ ومن معه على أساس أنهم مرَقوا من الدين ، وخرجوا على طاعة الإمام[٣] .

وتدل النصوص التاريخية فى هذا العصر على أن بنى أميَّة إنما قتلوا الحسين وزيد بن على صاحب مذهب الزيدية لأنهما خالفا الإمام وطالبا بالخلافة . أما بعد ذلك فكان الأمويون يعاملون الهاشميين معاملة حسنة[٤] ، وكذلك كان ولاتهم يحترمونهم إن لم يخرجوا أو يدعوا إلى الثورة .

على كل حال كانت صورة الخليفة الأموى فى رأى حزبه صورة مقدّسة ، لها جلالها وخَطَرها ، فهو الإمام الذى تجب طاعته لأن طاعته من طاعة الله ، وطاعة خصومه من طاعة الشيطان ، يدلُّ على ذلك أكبر الدلالة ما رواه الطبرى من أنه لما تُوفِّىَ يزيد بن معاوية ودعا ابن الزبير لنفسه قام حسَّان بن مالك بالأرْدنّ فقال : « يأهل الأردنّ ، ما شهادتكم على ابن الزبير وعلى قتلى أهل الحرَّة ؟ قالوا نشهد أن ابن الزبير منافق وأن قَتْلَى أهل الحرة فى النار ، قال :

---

(١) البيان والتبيين ٢ / ٦٤ .

(٢) طبرى ٢ / ٤١٤ وانظر كذلك طبرى ٢ / ٤١٥ ، ٢ / ٤٢٥ .

(٣) طبرى ٢ / ٣٤٢ .

(٤) انظر Lammens, Etudes sur le Règne du Calife Omaiyade Mo'âwia Ier, p. 154.

فما شهادتكم على يزيد بن معاوية وقتلاكم بالحَرَّة ؟ قالوا : نشهد أن يزيد على الحق وأن قتْلانا فى الجنة[(١)]» .

وهكذا كان ولاة بنى أمية وقادتهم وأنصارهم يدعون لهم دعوة تشبه دعوة الشيعة لأئمتهم . وقد تبعهم الشعراء يدعون فى شعرهم نفس الدعوة ، ويخيَّل إلى الإنسان أنه لم تكن هناك بلدة ولا قبيلة إلا فيها شعراء لهم نزعة أموية . فى مكة نجد أبا العباس الأعمى ، وفى المدينة نجد الأحوص ، وفى الكوفة نجد عبد الله بن الزَّبير الأسدى ، وفى البصرة نجد جريرًا والفرزدق ، وفى الجزيرة نجد الأخطل والقطامى وأعشى تَغْلِب ، وفى الشام نجد عَدِىّ بن الرِّقاع العاملى .

ومن الخطأ أن نحاول عدّ شعراء بنى أمية ، فهم أكثر من أن يُلمّ بهم إحصاء ، فقد بلغوا عشرات إن لم يكونوا مئات ، وتكتظ كتب الأدب العربى بهم وبأشعارهم ، وليس هذا مايهمنا إنما تهمنا الصورة التى صاغوا فيها مدائحهم للأمويين . ومن يرجع إلى ما قيل فيهم من أشعار يرى رَأْىَ العَيْن أن هذه الصورة لُوِّنَتْ بعناصر دينية على نحو ما رأينا عند الخوارج والشيعة ، فقد كان شعراؤهم يقررون دائمًا حقهم وأفضليتهم فى إرث النبوّة ، وأنهم أولى قريش بهذا الإرث ، وأخذوا يُبدئون ويعيدون فى أن الله اختارهم لخلقه ، واستمعْ إلى الأحوص يقول فى الوليد بن عبد الملك[(٢)] :

تخيَّرَه ربُّ العبادِ لخلقِه ... وليًّا وكان الله بالناس أعلَما

فهو يثبت له أن الله عز وجل اصطفاه لخلقه ، وأنه وكل إليه شئونهم يُدبِّرها كما يشاء ، وانظرْ فى هذه الأبيات يمدح بها عدىُّ بن الرِّقاع الوليدَ بن عبد الملك ، فيقول[(٣)] :

صلَّى الذى الصَّلوات الطَّيِّباتُ له ... والمؤمنون إذا ما جمَّعوا الْجُمَعَا
على الذى سَبَق الأقوامَ ضاحيةً ... بالأجرِ والحمْدِ حتى صاحِبَاه مَعَا
هو الذى جَمَع الرحمنُ أمَّتَه ... على يَدَيْه وكانوا قبله شِيَعا
إنّ الوليدَ أميرَ المؤمنين له ... مُلْكٌ عليه أعانَ اللهُ فارتفعَا

(١) طبرى ٢/٤٦٩ .
(٢) أغانى ١/٢٩٨ .
(٣) أغانى ١/٢٩٩ .

فأنت تراه يسمو بالوليد إلى شأوٍ بعيد من التقديس على نحو ما يسمو الشيعة بأئمتهم ، وتأملْ فى البيت الأول والثانى وما يصوغ عدىٌّ من الدعاء ، فهو يدعو الله أن يصلّى على إمامه الوليد ، ويدعو المسلمين كذلك أن يصلوا عليه فى صلواتهم وجُمَعِهم ، فقد جمع الله الأمة على يديه ، وأعانه ليرتفع بها إلى كل ما يريد لها من خيْر .

وعلى هذه الشاكلة كان شعراء بنى أمية يَغْلون فى مدائحهم ، وسنرى فى موضع آخر كيف كان جرير خاصة من بين شعراء العراق ، يَغلو فى مديحه لعبد الملك وأولاده ، وكيف كان يُضْفِى عليهم كل ما يُضْفيه الشيعة على أئمتهم من صفات روحية . ولم يقف الشعراء فى هذه الصورة من المديح عند الخلفاء فحسب ، بل ذهبوا يُضْفونها على ولاتهم وقوادهم ، واستمعْ إلى حارثة بن بدر الغُدَانى يقول فى زياد بن أبيه[1] :

فأنْتَ إمامُ مَعْدَلَةٍ وقَصْدٍ ... وحَزْمٍ حين تحضرُك الأمورُ
أخوك خليفةُ الله ابن حَرْبٍ ... وأنت وزيره نِعْمَ الوزيرُ
بأمر الله منصورٌ مُعانٌ ... إذا جارَ الرعيَّةُ لا تجورُ
وكنتَ حَيًّا وجئتَ على زمانٍ ... خبيثٍ ظاهرٍ فيه شرورُ
فلما قام سَيْفُ الله فيهم ... زيادٌ قامَ أبْلَجُ مستنيرُ

فأنت تراه يدعو معاوية خليفةَ الله ، ثم يُسْبغ على زياد من الصفات الدينية ما يسبغه الشيعة على أصحابهم ، فهو إمام عادل ينصره الله ويُعينه ، حتى يَشْفِى العراق مما فيها من شرور ، وإنه ليلقّبه أخيرًا بأنه سيف الله الذى أرسله إلى العراق رَحْمَةً بعباده . وفى صورة مماثلة لهذه الصورة كان الشعراء يمدحون الحجّاج ، فالعُدَيل بن الفَرْخ العِجْلىّ يقول فيه[2] :

بَنَى قُبَّةَ الإسلامِ حتى كأنَّما ... هَدَى الناسَ من بعد الضلال رسولُ
خليلُ أميرِ المؤمنين وسيفُه ... لكل إمامٍ مُصْطَفًى . وخليلُ

---

(١) طبرى ٢/٧٨ .
(٢) الشعر والشعراء ص ٢٤٥ والأغانى (طبع الساسى) ٢٠/١٤ .

فهو ينعت أمير المؤمنين بأنه إمام ، وينعت الحجاج بأنه خليله وسيفه ، وهو سيف يصول بعون الله ، فيَهدِى الناس من بعد الضلال ، ويبنى قبة الإسلام سامقة تطاول عنان السماء . واستمعْ إلى أعشَى هَمْدان يقول فى الحجاج بعد قضائه على ثورة عبد الرحمن بن الأشعث التى استعصت عليه طويلا[1] :

أبَى اللهُ إلا أن يُتَمِّمَ نُورَه ... ويطفِىءَ نارَ الفاسقين فتخمُدا
ويُنزِل ذُلاًّ بالعراق وأهلِه ... لِما نقضوا العهد الوثيقَ المؤكَّدا
وما أحدثوا من بدعةٍ وعظيمةٍ ... من القول لم تَصْعَد إلى الله مَصْعَدا
فقتلاهمُ قَتْلَى ضلالٍ وفتنةٍ ... وحيُّهمُ أمسى ذليلا مُطَرَّدا
وما زاحفَ الحجاجُ إلا رأيتَه ... مُعانًا مُلَقًّى للفتوح مُعَوَّدا

ومطلع الأبيات يستعيره الأعشى من قوله تعالى : (ويأبى الله إلا أن يُتِمَّ نوره) وقد وصف جيش ابن الأشعث بأنه جيش فاسقين وأهل بَغْى وبدْع وضلال وفتنة فى الدين ، ولذلك كانت عاقبتهم الوبال والخُسْرَان المبين ، وإنه ليمدح الحجاج بأنه معان من الله يؤيده دائمًا بنصره .

وفى صورة تشبه هذه الصورة كان الشعراء يمدحون قواد بنى أمية ، سواء منهم من عمل فى حروب الخوارج الداخلية ، ومن عمل فى الحروب الخارجية ، فى خراسان وغير خراسان ، واستمعْ إلى كعب الأشْقَرِىِّ يقول فى المهلب فى أثناء انتصاراته على الأزارقة فى كِرْمان[2] .

لولا المهلَّبُ للجيش الذى وردُوا ... أنهارَ كِرْمانَ بعد الله ما صَدَرُوا
إنا اعتصَمْنا بحبْل الله إذ جحَدوا ... بالمحكماتِ ولم نكفُرْ كما كفروا
جاروا عن القَصْد والإسلام واتَّبعُوا ... دينًا يخالفُ ما جاءتْ به النُّذُرُ

فكعب يرى الخوارج بما يرمون به المسلمين من العدول عن محجة الدين ، بل إنه ليكفرهم ، فقد جحدوا بمحكَم القرآن الكريم ، وهو يشير بذلك إلى قوله عزَّ وجل : (هو الذى أنزل عليك الكتابَ منه آياتٌ مُحْكَماتٌ هنَّ أمُّ الكتاب)

(١) طبرى ١١١٣/٢ .
(٢) طبرى ١٠١٧/٢ .

فالخوارج كفروا — فى رأى كعب — بهذه الآيات المحكمات التى تدعو إلى طاعة الله والرسول وأولى الأمر من المسلمين .

وأظن أنه قد اتضح الآن أن الشعر فى عصر بنى أمية تطور تحت تأثير السياسة ، فإن الشعراء توزَّعوا على الأحزاب ، وأخذوا ينظمون شعرهم معبرين عن نظريات سياسية جديدة . وكان حزب الأمويين أكثر نَفَرًا ، وكان يليه حزبا الشيعة والخوارج . أما حزب الزبيريين فكان أقل الأحزاب شعرًا وشعراء . وكان هذا الشعر السياسى يُصْبَغ بصبغة دينية ، لأنه فى الواقع كان يتصل مباشرة بفكرة إمامة المسلمين وخلافتهم ، فطبيعى أن يصبَّ فيه الدين وأن تَسيل منه أشعة إلى قصائده ونماذجه .

٤

الحياة الاجتماعية

لعل أول ما نلاحظه فى هذا الصدد أن الحجاز والشام تميَّزتا فى هذا العصر بضروب من اللهو لم تُعْنَ بها البيئات الأخرى عنايتهما ، وكان على رأس هذه الضروب فَنُّ الغِناء كما أشرنا إلى ذلك فى غير هذا الموضع .

فقد تكونت ، فى الحجاز تحت تأثير التَّرَف وفراغ كثير من الشباب للهو ، نظريةُ غِناء شارك فيها العرب والموالى ، ولم تلبث هذه النظرية أن انتقلت إلى الشام ، إذ كان هناك اتصال دائم بين مغنى الحجاز ومغنياته وبلاط الخلفاء .

ويخيَّل لمن يتصفح كتاب الأغانى أنه لم يعد للناس فى مكة والمدينة فى أثناء هذا العصر من عمل سوى السماع للغناء حتى العُبَّاد والفُقهاء كانوا يطلبونه . ويُرْوَى أن مالكا صاحب المذهب المعروف حاول فى أول أمره أن يكون مغنيًا[1] ، واشتهر عَطَاء وابن جُرَيْج من فقهاء مكة بإقبالهما على سماع المغنين[2] .

---

(١) أغانى ٤/٢٢٢ .

(٢) أغانى ١/٢٥٧ وانظر ١/٣١٦ .

ولم يلبث خلفاء بني أمية — إذ استثنينا معاوية — أن طلبوا هؤلاء المغنين ، وبالغ فى ذلك يزيد بن عبد الملك ، فكان يُرْسِل فى طلب المغنين والمغنيات من الحجاز ، واشترى مغنيتين مشهورتين : إحداهما بأربعة آلاف دينار وهى حَبابة[1] ، والثانية بعشرين ألفًا وهى سَلاَّمة القَسّ[2] . ونشأ ابنه الوليد على مثاله فكان بلاطه يكتظ بالمغنين من مثل مَعْبَد ، ويحيى قَيْل ، والهُذَلى ، والأَبْجَر ، وأبى كامل الغُزَيِّل .

وإذا رجعنا نبحث فى شعر الحجاز والشام لهذا العصر وجدناه فى أكثره يؤلَّف لهؤلاء المغنين ، فهو شعر غنائى بالمعنى الكامل ، إذ هو يعبر عن أحوال وجدانية ، فعظمه يدور حول قصة الحب ، ثم هو يؤلَّف ليُغَنَّى فعلا ، وهذا هو معنى اكتماله من الناحية الغنائية .

وتستطيع أن ترجع إلى شعر عمر بن أبى ربيعة وابن قَيْس الرُّقَيَّات والعَرْجى فى مكة ، والأحْوَص فى المدينة ، والوليد بن يزيد فى دمشق ، لترى أن شعرهم جميعاً يعبر عن ذوق جديد وحضارة جديدة ، فهو شعر قيل تحت تأثير تَرَف لم يكن للعرب فى الجاهلية عَهْدٌ به ، فقد بَنَى العربُ ، كما قدمنا فى غير هذا الموضع ، القصورَ ، واكتظت قصورهم بالجوارى الأجنبيات من كل لون ، وأُتْرِف ذوقهم وأترف شعورهم ، وعاش الموالى فى خدمتهم ، وقاموا لهم على فن الغناء الذى كانوا يحبونه ، فأحكموه إحكامًا دقيقًا .

ومن هنا كان كل من يقرأ شعر هؤلاء الشعراء يحس بفوارق شديدة بينهم وبين آبائهم فى الجاهلية ، فهم من إحساس جديد : إحساس مترف عاش أصحابه عيشة متحضرة ، لا تتصل بشَظَف العيش ولا بخشونة الحياة ، واقرأ شعرهم الذى يرويه صاحب الأغانى ، فستجده شعرًا خفيفًا يطير عن الأفواه طيرانًا ليَعْلَق بالقلوب والآذان . وهو شعر كان يذهب كله فى تصوير قصة الحب الحديثة فى الحجاز والشام ، حب هذا الشباب المترف الذى أصبح قوام حياته التهالك على المرأة

(١) أغانى (طبع الساسى) ١٣/١٤٩ .

(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ٨/٣٤٣ .

وإظهار كل تَفنانٍ فيها وكل رِقّةِ شعور .

ونستطيع أن نجمل خصائصه فى أنه شعرُ شبابٍ مُدُنٍ يسوقونه للمرأة ، وعلى الأخص المرأة التى يجدونها فى دور الغناء . وكان كل منهم يحاول أن يسبق صاحبه فى تصوير شعوره ودقة التعبير عنه . وفُتِنَت المغنياتُ بهذا الشعر الذى يُشيد بهن ويحكى حسنهن ومفاتنهن . والأحوصُ خير مثال يصور لنا ذلك ، فقد كان يعشق أكثر المغنيات فى دار جميلة ، وهى أكبرُ دارٍ للغناء فى المدينة ، بل فى الحجاز كله فى أثناء هذا العصر . وقلما تظهر مغنية فى هذه الدار لا يكون له معها شعر ، وعشق ، وحب ، وهو القائل[١] :

إذا أنت لم تَعْشَقْ ولم تدْرِ ما الهوى فكن حَجراً من يابس الصَّخْرِ جَلْمَدَا

فالحياة فى رأى الأحوص ليست إلا العشق والهوى . وقد تحول إلى كل مغنية فى بلدته يحاول أن يشرب معها كأسَ الحب صافية ، وتغنىَّ فى شعره غناءً حارًّا بهذه الكأس وما أصاب منها . وارجعْ إلى أخباره فى الأغانى فستجده يعشق حبَابة وسَلاَّمَة اللتين اشتراهما فيما بعد يزيد بن عبد الملك ، كما يعشق مغنية أخرى تسمى عَقِيلة ، ورابعة تسمى الذَّلْفاءَ ، وفيها يقول[٢] :

إنما الذلفاءُ همّى فَلْيَدَعْنِي مَنْ يلومُ
أحسنُ الناسِ جميعًا حين تمشى وتقـوم
حبَّبَ الذلفاءَ عندى منطقٌ منهـا رخيمُ
أصلُ الحبلَ لترضى وَهْىَ للحبل صَرُومُ
حبُّهـا فى القلب داءٌ مستكنٌّ لا يَرِيمُ

فهو يحبها فى جميع أحوالها حين تمشى وتقوم ، وحين تُغنّى وتكفُّ عن الغناء ، وحين تَصِله وتكفُّ عن الوصل . فحبها مرض لا يستطيع الإفلات منه ، فهو مستقر فى قلبه وفؤاده ، والذلفاء تارة تقبل عليه فتقبل عليه الدنيا ، وتدبر تارة فلا تزيده إلا هُيامًا بها ووَلَهًا .

وليس من ريب فى أن هذا الشعر يعبر عن ذوق جديد ، فالقدماء لم يكونوا

(١) أغانى (طبع الساسى) ١٣/١٥١ . (٢) أغانى (طبع دار الكتب) ٨/٢٠٠ .

يتهالكون على المرأة هذا التهالك الذى يتهالكه الأحوص ، لسبب بسيط ، وهو أنهم لم يكونوا مترفين ترف الأحوص وزملائه . وكانوا قلما أفردوا لها مقطوعات ، إنما كانوا يذكرونها غالبًا فى مُفْتَتَح قصائدهم ، ثم يتركونها إلى الموضوع الأساسى الذى يريدونه من مديح أو فخر أو نحو ذلك . أما الأحوص وأقرانه ، فقد أفردوا لها هذه المقطوعات وأنشأوها من أجلها إنشاء ، وبذلك تحوّل الشعر العربى فى الحجاز والشام هذا العصر من قصائد إلى مقطوعات ، تُقال فى المرأة لتعبر عن أحداث ووقائع وجدانية حاضرة . فلم يعد الشبان ينشدون هذا الشعر الجزل الفخم الذى كان يُنْشِده حسان بن ثابت وغيره فى سوق عُكَاظ ، بل أصبحوا ينشدون هذا الشعر السهل المتهافت الذى يُقال ليُغَنَّى فى دور اللهو والغناء ، يُغَنِّى فيه طُوَيْس وسائب خَاثر ومَعْبَد وابن مِسْجَح وابن سُرَيج والغَرِيض ، كما يغنى فيه جميلة وحَبَابة وسَلاَّمة وعَقيلة والذَّلْفاء . وكل هؤلاء أجانب على العرب والعربية . فلا بد للشاعر أن ينزل بأساليب شعره إلى اللغة اليومية ، حتى يُرْضِيَ ذوقهم . ونفس الصورة التى كان يذاع بها هذا الشعر ، وهى صورة الغناء، جعلت أصحابه يميلون إلى الأساليب الشائعة حتى يُرْضوا ذوق المستمعين .

لم يعد الشعر العربى فى الحجاز والشام يؤلَّف فى أثناء هذا العصر بالصورة القديمة ، إنما أصبح يؤلَّف بصورة جديدة ، فهو من حيث أسلوبه يميل الشعراء به إلى سهولة مفرطة ، وهو من حيث موضوعه أصبح يختص بالحب وأحداثه ووقائعه المعاصرة ، وهو من حيث كميته أصبح مقطوعات لا تزيد عن عشرة أبيات إلا فى القليل النادر . وليس هذا كل ما يميزه ، فقد كان هؤلاء المغنون والمغنيات يتناولون بعض أبياته بالإصلاح والتهذيب فيضعون كلمة مكان أخرى ، أو شطرًا مكان آخر ، وقد يزيدون بعض الأبيات . ويتضح هذا من المقابلة بين ديوان ابن أبى ربيعة وكتاب الأغانى فى المقطوعات التى غُنِّيَتْ من شعره ، إذ نجد اختلافًا كثيرًا .

فهذا اللون الجديد من الشعر لم يكن فنًّا مستقلا بنفسه ، بل كان فنًّا معتمداً على فن آخر هو الغناء وقد أخذ الغناء يؤثر فيه بصور مختلفة ، تارة عن طريق

تهذيب المغنين فيه ، وتارة عن طريق فَرْضِهم ألحانَهم على الشعراء ، وكانوا يدخلون ألحانًا أجنبية كثيرة[١] ، وكانوا يطلبون إلى الشعراء ، من حين لآخر ، قطعًا من أوزان خاصة ، حتى يُغَنُّوا فيها[٢] .

فشاعر المدينة ومكة ودمشق فى هذا العصر لم يكن حُرًّا ، بل كان مقيدًا بنظرية الغناء الجديدة التى وضعت حينئذ ورغبة أصحابها فى بعض الألحان والأنغام التى قد تحتاج فى الشعر إلى جَهْر ومَدٍّ فى بعض الحروف وهَمْسٍ وتقصير فى الحروف الأخرى ، وهو ما تعوَّد العروضيون أن يسموه بالزحافات . ولا نشك فى أن كثيرًا من زحافات الشعر فى هذا العصر أريد بها تلبيةٌ لحاجة مُغَنٍّ من المغنين أو مغنية من المغنيات .

وكذلك الشأن فى الأوزان نفسها فقد مال شعراء الحجاز والشام فى هذا العصر إلى الأوزان الخفيفة من مثل الوافر والهزَج والمُتقارب والرَّمَل والسَّريع والخَفيف . وقد ينظمون فى الأوزان الطويلة ولكنهم يعمدون إلى تجزئتها . وشَىْءٌ من ذلك كان موجودًا فى العصر الجاهلى ، ولكن نلاحظ فى هذا العصر الكثْرةَ ، وأن الشعراء كما هجروا الأساليب الجزلة حاولوا أن يهجروا الأوزان المعقدَة . كل ذلك ليصيبوا هوى المغنين والمغنيات ، حتى يتيحوا لهم الفرصة كى يصبّوا فى الشعر كل ما يريدون من ألحان وأنغام .

وعلى هذا النحو كان الشعر فى الحجاز والشام هذا العصر يدور غالبًا حول قصة الحب ، فهو شعر يكاد يذهب كله فى الغزل . وكان هذا الغزل يؤلَّف فى لغة يومية مشتقة من لغة الناس الجارية ، ليس فيها بُعْدٌ ولا إغراب ، ولا لفظ ناب ، فقد كُتِبَ تحت ذوق متحضر جديد ، وتنادت به أصوات أجنبية من المغنين والمغنيات ، وعاش كثير من أصحابه أو كل أصحابه فى مرافقتهم وملازمة دورهم وآلاتهم الوترية وطبولهم الموسيقية ، فكان لذلك كله آثار مختلفة فى هذا الغزل ، تناولت أساليبه ، وألفاظه ، وأوزانه .

---

(١) انظر الأغانى ١/٢٥٠ ، ٣٧٨ وكذلك ٣/٢٧٧ .

(٢) أغانى ٢/٢٣٧ وما بعدها .

وهذه الطبقة المترفة التى أنتجت حياتُها الاجتماعية هذا الغزل الجديد كان يقابلها فى الكفة الثانية من العرب طبقة عامة اتخذ أدبها وشعرها صوراً مخالفة . فنحن إذا ما تركنا الحجاز والشام ومدنهما الكبيرة إلى نجد وجدنا العرب هناك يعيشون ، كما كان آباؤهم فى الجاهلية ، معيشةً فيها شَظَفٌ وحرمان ، وقد مسح عليها الدين الجديد بروحيّةٍ أحدثت سموًّا فى النفوس ، وسموًّا فى الشعر نفسه . وشاع فى هذه البيئة الغزل ، ولكنه تميّز فيها تميزًا واضحًا عن غزل مكة والمدينة ، فقد كان الناس فيهما — كما قدمنا — مترفين وعرفوا فنونًا من الحضارة المادية التى دخلت عندهم من فارس والروم ، فكان فى شعرهم لذلك شىء من الحرية والإباحية . أما فى البادية فكان الغزل عفيفًا ، لأن العرب هناك لم يعرفوا الترف ولا أفسدتهم الحضارة ، وقد رقّى الإسلام نفوسهم وصفّاها ، فكان طبيعيًّا أن لا يكون غزلهم إباحيًّا صريحًا ، بل يكون غزلا متساميًا ، فيه نُبْلٌ ، وفيه حرمان ، وفيه طهارة ، وارتفاع عن الحس والمادة .

ويقص لنا الرواة دائمًا أن العاشق من هؤلاء النجديين سواء كان من بنى عذرة أو من بنى عامر أو من غيرهما من القبائل كان يُمْنَعُ من لقاء صاحبته ، بل كانت تحرَّم عليه تحريمًا حين يَشْدو باسمها ويتغنّى بحبها . وكأن ذلك فى رأيهم هو سبب هذه العقدة التى يحسُّها من يقرأ غزلهم ، فهو غزل مضطرم فى قلوبهم أبدًا ، ظامئ أبدًا ، متلهف على لقاء المحبوبة تلهفًا لا يزال بنفرٍ منهم حتى يجنّوا جنونًا أو يهلكوا هلاكًا دون أن يبتهجوا بوصلٍ أو يسعدوا بقربٍ ، وهم يثنون لهذا الحرمان ويبكون ويتفجعون .

وفى رأينا أن هذه العقدة التى فسر بها الرُّواة هذا الحب العذرى الطاهر المحروم إنما هى عقدة اصطنعوها اصطناعًا ، فإن الإسلام لا يحرم زواج المحب لمحبوبته ، وما كان العرب ليقيموا سُنَّةً لا يعرفها الإسلام ولا جاء بها .

وتصوِّر هذا الحب العذرى أتمَّ تصوير الأشعارُ المنثورة فى ترجمة مجنون ليلى العامرى بكتاب الأغانى ، فإنها تقص هذا الحب اليائس الذى لا يستطيع المحب فيه أن يلقى صاحبته وينعم طَرْفه بمحيّاها الرائع على نحو ما نرى فى مثل قوله :

وأحْبِسُ عنكِ النفسَ والنفسُ صَبَّةٌ بذكراكِ والمَشْتَى إليكِ قريبُ

وقوله :

أقول لأصحابى هي الشمسُ ضوؤها قريبٌ ولكن فى تناولها بُعْدُ

وقوله :

وأصبحتُ من ليلى الغَدَاةَ كناظرٍ مع الصُّبْحِ فى أعقابِ نَجْمٍ مُغَرِّبِ

وقوله :

يسمُّونَنى المجنونَ حين يَرَوْنَنى نعَمْ بِىَ من ليلى الغداةَ جنونُ

ووراء هذه الأبيات أشعار كثيرة تصف كيف ملك جمالُ ليلى منه حِسَّه وعقله وقلبه منذ أن كانا صبيين يرعيان الأغنام ، يقول :

تعلقتُ ليلى وهْىَ ذات تمائمٍ ولم يَبْدُ للأتراب من ثَدْيِها حَجْمُ
صغيرين نَرْعَى البَهْمَ يا ليت أننا إلى اليوم لم نكْبَرْ ولم تكبر البَهْمُ

وما يزال يصور لوعته من حبها وبكيها بكاء كله تفجع وحسرة ويأس قاتل من لقائها ، على نحو ما نرى فى مثل قوله :

نَهارى نهارُ الناس حتى إذا بَدا لِىَ الليلُ شاقَتْنى إليك المضاجعُ
أقضِّى نهارى بالحديث وبالمنى ويجمعنى والهمَّ بالليل جامع
لقد ثبتتْ فى القلب منك محبَّةٌ كما ثبتتْ فى الراحتين الأصابع

وقوله :

تمرُّ الليالى والشهورُ وتَنْقَضِى وحبُّك لا يزداد إلا تَمَاديا
أعدُّ الليالى ليلةً بعد ليلةٍ وقد عشتُ دهرًا لا أعدُّ اللَّياليا
وأنتِ التى إن شئت أشقيتِ عيشتى وإن شئتِ ــ بعد الله ــ أنعمتِ باليا
أمضروبةٌ ليْلَى على أن أزورها ومتَّخَذٌ ذنبًا لها أن تَرانيا
هى السِّحْرُ إلا أن للسِّحر رُقْيَةً وإنى لا أُلْفِى لها الدهرَ راقيا

وقوله :

وداعٍ دعَا إذ نحن بالخَيْف من منى فهيَّج أشْجان الفؤاد وما يَدْرِى
دعا باسم ليلى غيرَها فكأنمـا أطارَ بليلى طائرًا كان فى صدرى

ويختلط عقله ويهيم فى البرية مع الوحش يأكل مما تأكل ويشرب مما تشرب ، ويلقاه الناس صدفة ، فلا يحدثهم إلا عن ليلى وعن جنونه فى حبها :

وإنى لمجنـونٌ بليلى موكَّلٌ ولستُ عَزوفًا عن هواها ولا جَلْدَا
إذا ذُكرتْ ليلى بكيتُ صبابةً لتذكارها حتى يَبُلَّ البُكا الخدَّا

ويرى صورتها فى كل ما حوله من أماكن وربوع وظباء ووحش ومن بدور وشموس ، ويتغنى بكل ما يهب على ديارها من رياح صَبا وغير صَبًا ، وبكل ما يراه من سحب وسيول وبروق وأزهار وحُمول ، وما كان يشجيه شىء كنوح الحمام ، فقد كان يذرى دموعه إذراء شديدًا . وما يزال فى ذلك حتى يهلك عشقًا وحبًّا .

ولا تظن أن مجنون ليلى شخصية حقيقية ، فقد كان الرواة القدماء أنفسهم ينكرونه ، كما حدثنا صاحب الأغانى فى ترجمته ، بل كان العرب أنفسهم ينكرونه ويقولون إن المجانين كثير ، وكأنما اتخذه النجديون رمزاً يضيفون إليه هذا الغزل العذرى العفيف الذى كان يجرى على ألسنتهم . ومعنى ذلك أن هذا الغزل الذى نقرؤه فى الأغانى والذى يضاف إلى مجنون ليلى وأضرابه مثل قيس بن ذَريح وعروة ابن حِزام ليس من عمل شاعر بعينه ، وإنما هو من عمل هذه الجماعة النجدية فى عصر بنى أمية يشترك فيه كثيرون مجهولون لم يكن يعنيهم فى قليل ولا كثير أن تُعْرَفَ أسماؤهم ويشتهروا فى الناس .

ولعل فى هذا ما يلفتنا إلى أن هذا الغزل العذرى العفيف الذى شاع حينذاك إنما كان ضربًا من الأدب الشعبى المبكر فى اللغة العربية فأصحابه مجهولون . وقد صحبته أقاصيص كثيرة ، فلم يكن شعرًا خالصًا ، بل كان شعرًا ونثرًا ، وكان النثر والشعر أو كان القصص والشعر يدوران على ألسنة النجديين هذا الدوران الذى نعرفه للأدب الشعبى ، إذ يجرى على كل لسان . وحقًّا كان بين هؤلاء العذريين من أثبتهم التاريخ مثل جميل صاحب بثينة وكثيِّر صاحب عزَّة ، ولكن ما نُسب إليهما وإلى أضرابهما شعرًا أو قصصًا لا يقاس من حيث الروعة إلى ما نُسب إلى

الأشخاص الأسطوريين من مثل مجنون ليلى وقيس بن ذَرِيح صاحب لُبْنَى وعروة بن حزام صاحب عَفْراء .

وهذا الغزل العذرى أو العفيف الذى شاع فى نجد وبوادى الحجاز كان يرافقه شعر آخر يقال فى تخاصم القوم على المياه والمراعى ، وقد يتحوّل إلى هجاء على نحو ما كان شأنهم فى الجاهلية ، ولكن على العموم كان نشاط الشعر ضيقاً فى هذا المجال .

وإذا تركنا نجداً إلى العراق ومدينتيه الكبيرتين البصرة والكوفة اللتين اختطهما عمر هناك وجدنا العرب الذين نزلوهما يشتغلون طوال هذا العصر بالحروب والفتوح ، حروب الخوارج وفتوح خراسان والهند . فلم يكونوا آمنين مستقرّين بل كانوا دائماً على أهبة القتال والاشتراك فى البعوث التى يرسلها زياد والحجاج وخالد القَسْرِىّ لتعقب الخوارج أو فتح مدن الترك فى خراسان وما وراء النهر .

ومن أهم ما يلاحظ فى تكوين الكوفة والبصرة أنه لم يتم للعرب فيهما اندماج تام ينسَوْن فيه حياتهم القديمة ، فقد نزلوا فيهما قبائل ، كل قبيلة لها منازلها ، فكانت تميم مثلا تنزل فى جانب ، وهكذا أسد وبكر والأزد وهلم جرّا . فمن هذه الناحية لم يتم تكوين الكوفة والبصرة مدينتين كاملتين ، لكل منهما فرديتها وتمازج أهلها بل استمر سكانهما يشعرون أنهم قبائل ، وإن عاشوا فى المدن ، وخدمهم الأعاجم .

ومن هنا غلب على الحياة فى البلدتين طابع الحياة الجاهلية . وإذا كانت المدينة فى الحجاز مثلا اشتهرت بدار جميلة حيث المغنون والمغنيات فإن البصرة اشتهرت بالمِرْبَد ، كما اشتهرت الكوفة بالكُناسة ، وهما سوقان عامتان على نحو ما كانت سوق عُكاظ فى الجاهلية .

وذاع صيت المِرْبَد خاصة فى هذا العصر حيث كانت تتحلّق القبائل حول شعرائها ، فلجرير حَلْقته ، وللفرزدق حلقته[1] ، ويؤمّ الناس هاتين الحلقتين وغيرهما من الحلقات[2] التى كانت تنعقد هناك كل يوم ، ليستمعوا إلى ما ينشد الشعراء ، وخاصة فى العصبيات القبلية .

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ٨/٢٩ ، ٨/٧٧ .

(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ٥/١٢ ، ١٠/١٥٢ و(طبعة الساسى) ١٦/١١٣-١١٤

وكانت هذه العصبيات هى كل حياة القوم الاجتماعية وما يتصل بها من لهو وعبث ، فقد أمضوا أوقاتهم هناك يُثيرونها ويتحدَّثون فيها ، ويتعقبون بأحاديثهم ما كان منها فى الجاهلية وما اتصل منها فى الإسلام ، وكأنما ذهبت أدْرَاجَ الرياح وصايا النبى صلى الله عليه وسلم فى العرب وما دعا إليه من نَبْذ التَّفاخر والتكاثر من مثل قوله فى خطبة حِجَّة الوداع :

« أيها الناس ! إن الله تعالى أذهب عنكم نَخْوَةَ الجاهلية وفَخْرَها بالآباء ، كلكم لآدم وآدم من تراب » .

وليس من شك فى أن هذا مَثَلٌ أعلى أراده الإسلام للعرب ، حتى تجتمع كلمتهم ولكنهم لم يكادوا يطمئنون بعد فتوح أبى بكر وعمر وعثمان ، حتى عادوا إلى دَعْوَى الجاهلية ، وإلى منازعاتهم العصبية . وعَمِل على تأجُّج نار هذه العصبية ما كان من تحارب القبائل فى صِفين وقبل صفِّين فى موقعه الجَمَل ، فاشتعل ما كان خَبَا فى نفوسهم ، وعادوا إلى التنابذ بالألقاب والفخر بالآباء . وفى الظاهر كان علىٌّ ومعاوية يقتتلان ، وفى الباطن كانت القبائل تتكتَّل حسب خصوماتها الجاهلية ، فمعاوية معه قُضَاعَة وكَلْب اليمنيتان ومعه تَغْلِب ، وعلى معه قَيْسٌ ، ومعاوية معه قريش ، وعلى معه الأنصار .

ويفرغ أهل الكوفة والبصرة من حرب صفين أو حرب على ومعاوية ، ليُشْعِلوا نار هذه العصبيات ، وليتخذوها لَهْوَهم ولَعِبَهم . وسرعان ما أخذت شكل فخر وهجاء فى نطاق لعل العصر الجاهلى لم يظفر به ، فقد كان شعراء القبائل فى الجاهلية يتفاخرون ويتهاجَون ومنازلهم بعيدة ، أما اليوم فهم مصطفُّون بعضهم أمام بعض ، وكل قبيلة تستحثُّ شعراءها ، ليرموا خصومها بهذه السهام اللاذعة . وبذلك أخذ الهجاء فى العصر الأموى شكلاً أعنف من شكله فى العصر الجاهلى ، فقد اصطفَّت القبائل وجماهيرها فى حلقات بالمِرْبَد والكُناسَة ، والناس يقبلون على هذه الحلقات للفُرْجَة وكل قبيلة تحاول أن تستخرج من شاعرها أحدَّ ما فى جَعْبَتِه من سهام ، حتى تَريش بها القبائل التى عادَتْهَا قديمًا ، ولا تزال تعاديها حديثًا .

وكان هذا الهجاء هو الشغلَ الشاغل للطبقة الفارغة من العرب فى العراق حين يهدأون فلا ينتقضون على الدولة ولا يخرجون فى حرب ولا بعوث ، فنرى الناس يتجمعون فى الكناسة والمربد ليتلو لهم شعراؤهم هذه الصحف المثيرة ، صحف مفاخرهم ومباذِلِ خصومهم ، وهم من حولهم يصفِّرون ويصفقون .

وقد طالت المسافة بيننا وبين من عاشوا فى العراق فى أثناء هذا العصر الأموى ، وأصبحنا لا نعرف الآن معرفة دقيقة ما كان لهذه الخصومات وما صاحبها من فخر وهجاء من تأثير فى نفوس القوم ، ولكن من يتابع تاريخ العرب فى الجاهلية والإسلام يراهم يخشون بأس الشعراء خشية شديدة . ويوضِّح ذلك من بعض الوجوه ما يُرْوَى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حين بدأ حسان بن ثابت يهجو قريشًا فقد قال له : « لهذا أشدُّ عليهم من وَقْع النَّبْلِ[١] » وقصة الحُطَيْئَة مع الزِّبْرِقان بن بَدْر مشهورة ، فقد هجاه ، فاستعدى عليه عمر بن الخطاب ، فحبسه ، ثم عفا عنه بعد شعر كثير ، يستعطفه فيه على أطفاله[٢] .

ويظهر أن هذا الهجاء طَبْعٌ رُكِّبَ فى العرب ، فإن الإنسان لا يسمع بشريف من أشرافهم فى الجاهلية والإسلام إلاَّ وقد سلَّط الشعراء عليه نبال هجائهم ، يقول الجاحظ : « وإذا بلغ السيدُ فى السؤدد الكمالَ حسَده من الأشراف من يظن أنه الأحق منه ، وفخرت به عشيرته ، فلا يزال سفيهٌ من شعراء تلك القبائل قد غاظه ارتفاعُه على مرتبةِ سيدِ عشيرته فهجاه . ومن طلب عيبًا وجده ، فإن لم يجد عيبًا وجد بعضَ ما إذا ذكره وجد مَنْ يغلط فيه ، ويحمله عنه ، ولذلك هُجِيَ حِصْن بن حُذَيفة ، وهُجِيَ زُرارة بن عُدُس ، وهُجِيَ عبد الله بن جُدْعان وهُجِيَ حَاجِب بن زُرَارة[٣] » .

فالجاحظ يقرر أن الهجاء كان شيئًا عامًّا عند العرب وأن بيتًا شريفًا لم يَخْلُ منه فهو قصاصُ الشرف فى نفوس الأعداء للقبيلة ، وهو سبيل الظلم لها إن انتصرت عليهم فى حرب أو سبقتهم فى فضل . وقد ذهب يقرر فى وضوح أن القبيلة الشريفة يكون فيها خَيْرٌ كثير وشَرٌّ كثير ، وبذلك تكون معرضًا للهجاء .

---

(١) أغانى ٤/١٤٣ .
(٢) أغانى ٢/١٧٩ وما بعدها .
(٣) الحيوان ٢/٩٣ .

أما القبيلة الوضيعة فلا تذكر بخير ولا شر ، وتدخل فى غمار الناس ، فمحلُّ أهلها محلُّ مَنْ لا يغيظ الشعراء ولا يحسدهم الأكفاء . واسترسل يعدّد القبائل الشريفة فى العرب فقال : « القبائل المتقادمة الميلاد التى فى شطرها خير كثير ، وفى الشطر الآخر شرٌّ وضَعة مثل قبائل غَطَفان وقيس عَيْلان ، ومثل فزارة ومُرَّة وثعلبة ، ومثل عَبْس وعبد الله بن غَطفان ، ثم غنىّ وباهلة . . . والشرف والخطَر فى عَبْس وذُبْيان ، والمبْتَلَى والملقَّى والمحروم والمظلوم مثل باهلة وغنىّ مما لقيتا من صوائب سهام الشعراء وحتى كأنهما آلة لمدارج الأقلام ينكبّ فيها كل ساع ، ويعثُرُ بها كل ماش . . حتى صار من لا خير فيه ولا شر عنده أحسنَ حالاً ممن فيه الخير الكثير وبعض الشر . . ومن هذا الضرب تَميم وثَوْر وعُكْل وتَيْم ومُزَينة ، فى عكل وتَيْم ومُزَيْنة من الشرف والفضل ما ليس فى ثور . وقد سلمت ثور إلاّ من الشىء اليسير ، مما لا يرويه إلاّ العلماء ، ثم جلَّت البلية وركَد الشر والتحف الهجاء على عكل وتيم . وقد شَعَّثوا بين مزينة شيئاً . وقد نالوا من ضَبَّة مع ما فى ضبة من الخصال الشريفة . . . وكذلك بَلْعَنبر قد ابتُلِيَتْ وظُلِمَت وبُخِسَت مع ما فيها من الفرسان والشعراء ، ومن الزهاد ومن الفقهاء ، ومن القضاة والولاة ، ومن نوادر الرجال إسلاميين وجاهليين . وقد سَلِمَتْ كعب بن عمرو ، فإنه لم ينلها من الهجاء إلاّ الخَمْشُ والنَّتْف . ولأمر ما بكت العرب بالدموع الغِزار من وقع الهجاء[1] » .

والجاحظ يستعرض فى هذه الفقرة البديعة ما كان بين العرب فى العصرين الجاهلى والأموى من هجاء استطارت نيرانه . وقد استعرت هذه النيران فى العراق بالمِرْبَد والكُناسة ، فكل شاعر لقبيلة من هذه القبائل التى عدها الجاحظ يستحدث حجراً كبيراً يقذف به خصومها ، وينهض له خصم من القبيلة ، فيردّ حجره إلى رأسه ورأس قبيلته .

وهكذا احتدمت هناك العصبيات ، وهى عصبيات كانت تقوم بين الأصول والجراثيم الكبيرة من العرب ، كما تقوم بين الفروع والشعب الصغيرة ، فمُضَر تُضَعْضِعُ من اليمن ، وتستمر هاتان العصبيتان الكبيرتان بين المضرية واليمنية ، ثم

---

(١) الحيوان ١/٣٥٩ .

تنقسم مضر أقساماً أهمها تَميم وقَيْس وربيعة بفرعيها : بَكْر وتَغْلِب . وكل قسم من هذه الأقسام ينقسم إلى شعب وغصون ، وقد تطاحنت الشعب والغصون القيسية بأقوى وأعنف مما تطاحنت الشعب والغصون فى الأقسام الأخرى .

وعلى هذا النحو كان لكل قبيلة ، بل لكل بَطْن من قبيلة فى البصرة والكوفة شعراء ينافحون عنه فى هذه الحرب اللسانية الداخلية التى أُشْرِعت فيها أسنَّة الشعر ، وترامى فيها الشعراء من كل جانب بالنبال والسهام . وفى الأغانى صُوَر من ذلك كثيرة ، فمُساوِر العَبْسِيّ يتهاجى مع المَرَّار الفَقْعَسِي الأسَدى[١] ، وابن ميَّادة الذبيانى يتهاجى مع الحكم الخُضْرى المحاربى[٢] ، ويتهاجى زياد الأعجم مولى عبد القيس مع كعب الأشْقَرِيّ[٣] ، ومع المغيرة بن حَبْنَاء التميمى[٤] .

ونفذ فى أثناء ذلك جرير والفرزدق من جهة وجرير أيضاً والأخطل من جهة ثانية إلى أهاجٍ كانت تُلْقَى فى مسرح المِرْبَد ، وكانت تأخذ شكل لُعْبة طريفة يتجمع الناس لمشاهدتها والفُرْجة عليها . وسميت هذه الأهاجى بالنقائض ، وسنعرض لها فى الفصل التالى ونكشف عما فيها من جديد ، فقد استطاعوا أن يحولوا فن الهجاء الجاهلى إلى فن النقائض الأموى ، واتخذوه ليسلُّوا به هذه الجماعة الفارغة فى العراق .

وكان يعيش مع هذه الطبقة العامة من العرب والطبقة الأرستقراطية السابقة طبقةٌ ثالثةٌ من الأجانب ، وهم الموالى . وكانوا كثيرين فى المدن الإسلامية كثرة ظاهرة ، إذ كانوا يبلغون فى الكوفة والبصرة نحو نصف السكان .

وكثير من هؤلاء الموالى كان من أسْرَى العرب فى الحروب ومغانمها ، وقد عاشوا معهم ، لخدمتهم ، فالعرب إذاً كانوا سادتهم ، وكانوا يشعرون دائماً بهذه السيادة عليهم ، فهم أتباعهم وقد قاموا لهم على الزراعة والصناعة والحِرَف والمِهَن المختلفة .

---

(١) أغانى (طبع دار الكتب) ١٠/٣١٨
(٢) أغانى (طبع دار الكتب) ٢/٢٨٣ وما بعدها .
(٣) أغانى (طبع دار الكتب) ١٤/٢٨٧ ، ١٥/٣٩٣ .
(٤) أغانى ١٣/٩٩ .

وعلى الرغم من أن الإسلام دعا إلى نَزْع الفوارق بين الطبقات فى الأمة ، فقال جلّ شأنه : (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع : « ليس لعربى على عجمى فضلٌ إلا بالتقوى » . على الرغم من ذلك نرى العرب فى العصر الأموى ينظرون إلى هؤلاء الموالى نظرة السادة إلى العبيد . ففى حوادث ثورة المختار الثقفى حين ثار فى الكوفة ودعا لابن الحنفية وثار معه الموالى ثم هزمهم مصعب بمن نهض معه من أهل البصرة سُخْطًا على المختار لأنه سوّى بين هؤلاء الموالى وبين عرب الكوفة فى الحقوق ، فى هذه الحوادث نجد الطبرى يروى عن الشَّعْبى أنه قال: «دخلت البصرة ، فقعدت إلى حَلْقة فيها الأحْنَف ابن قيس ، فقال لى بعض القوم : من أنت ؟ قلت : رجل من أهل الكوفة ، قال : أنتم موالٍ لنا ، قلت : وكيف ؟ قال : قد أنقذناكم من أيدى عبيدكم ، من أصحاب المختار[١]» .

فالعرب فى عصر بنى أمية رفضوا نظرية الإسلام التى تدعو إلى التسوية بين الشعوب والقبائل، ونظر نفر منهم إلى الموالى نظرة السيد إلى عبده، وقد أقاموهم على خدمتهم فى السلم . أما فى الحرب فيلاحظ قلْهوَزن أنهم كانوا يأخذونهم معهم إذا حاربوا ، ولكنهم كانوا لا يركبون الخيل مثلهم ، إنما يحاربون بين أيديهم رَجّالة ، ويقول إن ذلك يذكّر بالفرسان وخدمهم فى العصور الوسطى[٢] ، ولكن لعل ذلك حدث لأنهم لم يكونوا فعلا أهل فروسية وخيل .

وفى العقد الفريد فصل يصور فيه ابن عبد ربه معاملة العرب للموالى ، وربما كان كثير مما رواه مبالغاً فيه ونراه يقول : « قَدّم نافع بن جُبَيْر بن مُطْعَم رجلا من الموالى يصلّى به ، فقالوا له فى ذلك ، فقال إنما أردت أن أتواضع لله بالصلاة خلفه ، ويقال إن نافع بن جبير هذا كان إذا مرت به جنازة قال: من هذا ؟ فإذا قالوا: قرشى ، قال واقوماه ، وإذا قالوا عربى ، قال وابلدتاه ، وإذا قالوا مَوْلَى ،

---

(١) طبرى ٢/٦٨٤ . وانظر الطبرى ٢/٧٢١ .

(٢) كتاب قلهوزن السابق ص ٢٤٦

قال : هو مال الله يأخذ ما شاء ويدع ما شاء . وكانوا يقولون لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة : حمار أو كلب أومولى ! . وكانوا لا يكنونهم بالكُنَى ولا يَدْعونهم إلا بالأسماء والألقاب ، ولا يمشون فى الصفِّ معهم ، ولا يتقدمونهم فى الموكب ، وإن حضروا طعاماً قاموا على رؤوسهم ، وإن أطعموا المولى لسِنّه وفضله وعلمه أجلسوه فى طريق الخبّاز ، لئلا يخفى على الناظر أنه ليس من العرب . ولا يدعونهم يُصَلُّون على الجنائز إذا حضر أحد العرب . وكان الخاطب لا يخطب المرأة منهم إلى أبيها ولا إلى أخيها ، وإنما يخطبها إلى مولاها فإن رضى زوّج ، وإلا رَدّ ، فإن زوّج الأب والأخ بغير رأى مواليه فُسِخ الزواج . . . ورُوِى أن عامر بن عبد القَيْس فى نسكه وزهده وتقشفه وإخْباته وعبادته كلّمه حُمْرَان مولى عثمان بن عفان عند عبد الله ابن عامر صاحب العراق فى تشنيعه على عثمان وطَعْنِه عليه ، فأنكر ذلك ، فقال له حمران : لا كثَّر الله فينا مثلك ، فقال له عامر : بل كثَّر الله فينا مثلك ، فقيل له : أيدعو عليك ، وتدعو له ؟! قال : نعم يكسَحون طرقنا ، ويَخْرزون خفافنا ، ويحوكون ثيابنا[1] » .

ولا نشك فى أن فى هذه الأخبار والروايات كثيراً من المبالغة ، ولكن من الحق أن الموالى كانوا طبقة ثالثة فى المجتمع العربى فى أثناء هذا العصر ، ومن المؤكد أنهم أدوا دوراً عظيما حينئذ فى خدمة الدين والثقافة الإسلامية ، فكان أكثرُ حَمَلَة العلم والدين منهم ، وكذلك كان منهم شعراء اشتهروا فى هذا العصر مثل زياد الأعْجم مولى عبد القَيْس وأبى العباس الأعمى الشاعر المكى مولى بنى الدُّئِل ، ويزيد بن ضبَّة مولى ثَقِيف ، وقد خرّجَت أسرةُ يَسَار النَّسائى فى المدينة غير شاعر .

وإذا أخذنا نبحث شعر هؤلاء الموالى وجدنا أكثره يذهب فى المديح . وهذا طبيعى فمنزلتهم متأخرة فى الحياة ، وهم فى حاجة إلى المال ، فلزموا الخلفاء والأمراء والأجواد المشهورين يمدحونهم ، لينالوا عطاءهم .

وقد لُوِّن شعرُ نفر منهم بنزعة شعوبية ، جاءت من موقف العرب إزاءهم ومحاولتهم إذلالهم فكان ذلك سبباً لثورة نفسية كَبَتُوها ، أو كبتها معظمهم ، وأفصح عنها بعضهم من حين إلى حين . فالمصدور لا بد له أن ينْفُثَ . وأهمُّ

(١) ابن عبد ربه ٢/٩١ .

شاعر اشتهر بهذه النزعة في العصر الأموي إسماعيل بن يسار النسائي ، وقد ترجم له أبو الفرج ترجمة طريفة في الأغاني ، وروى طرفًا من شعره الشعوبي ، فمن ذلك قوله[1] :

رُبَّ خالٍ متوَّجٍ لي وعمٍّ ماجدٍ مُجتَدَى كريمِ النِّصابِ
إنما سُمِّيَ الفوارسُ بالفُر سِ مضاهاةَ رفعةِ الأنسابِ
فاتركي الفخر يا أُمامَ علينا واتركي الجَوْرَ وانْطِقي بالصوابِ
واسألي إن جهلتِ عنا وعنكمْ كيف كنا في سالف الأحقابِ
إذ نُرَبِّي بناتِنا وتَدُسُّو نَ سَفاهًا بناتِكم في الترابِ

وهذه نزعة شعوبية واضحة ، فإسماعيل لا يحاول أن يفخر بالفرس فقط ، بل يحاول أن يضعهم فوق العرب ، إذ يرجع إلى التاريخ القديم في الجاهلية ، وما كان العرب فيه من فوضى ، وما كان لقومه من ملوك متوّجين . ونراه يشير إلى ما كان عليه العرب من غِلَظ وجفوة ، إذ كانوا يئدون بناتهم .

ويظهر أن إسماعيل لم يكن يُخْفي هذه الشعوبية ، فقد روَى صاحب الأغاني أنه دخل على هشام بن عبد الملك في خلافته وهو بالرُّصافة جالسٌ على بِرْكة ماء في قصره ، فاستنشده ، وهو يظن أنه يُنْشِده مديحًا له ، فأنشده قصيدة له يفخر فيها بالعجم ، حتى انتهى إلى قوله :

إني وجَدِّكَ ما عودي بذي خَوَرٍ عند الحفاظ ولا حَوْضي بمهدومِ
أصلي كريمٌ ومَجْدي لا يُقاسُ به ولي لسانٌ كحدِّ السيف مسمومِ
أحمي به مَجْدَ أقوامٍ ذوي حَسَبٍ من كل قَرْمٍ بتاجِ المُلْكِ مَعْمومِ
جحاجحٍ سادةٍ بُلْجٍ مَرازِبَةٍ جُرْدٍ عِتاقٍ مساميحٍ مطاعيمِ
من مثل كِسْرَى وسابورِ الجنودِ مَعًا والهُرْمُزانِ لفخرٍ أو لتعظيمِ
أُسْدُ الكتائب يوم الرَّوْعِ إن زحفوا وهم أذلّوا ملوكَ الترك والرومِ

فغضب هشام وقال : « أعليَّ تفخر وإياي تنشد قصيدة تمدح بها نفسك وأعلاجَ قومك ؟ ! » ثم أمر أن يرموه في الماء ، فرموه وغطّوه ، حتى كادت نفسه

(١) أغاني ٤/٤١١ .

تخرج ، ثم أمر بإخراجه، ونفاه من وقته إلى الحجاز[١]. وطبيعى أن يُضْرَب ويُحْرَم ويُطْرَد فى هذا العصر الذى كانت الدولة تتعصب فيه لكل ما هو عربى، كما كانت تحارب كل نزعة ترمى إلى الغَضِّ من شأن العرب وحطِّهم ورَفْع غيرهم عليهم ، وإنما اتسعت الشعوبية أو هذه القومية العنصرية فى العصر العباسى حين ضَعُف شأنُ العرب وقَوِىَ شأن الفرس ، وارتفع نجمهم .

ولعل فى كل ما تقدم ما يدل فى وضوح على أن الشعر فى هذا العصر الأموى تطوَّر مع تطور حياة العرب الاجتماعية وما كان فيها من طبقات ، بعضها فوق بعض . فالموالى وموقف العرب منهم وشعوبيتهم ، والعرب وعصبياتهم وما انطوى فيها من فخر وهجاء ، وقريش وترفها وغناؤها وغزلها ، كل ذلك مُصَوَّرٌ فى الشعر الأموى أروع تصوير .

٥

الحياة الاقتصادية

من أهم العوامل فى تكوين نفسية الفرد حياته الاقتصادية ، فالذين ينعمون بالراحة ، ويتوفر لهم نعيم الدنيا شأنُهم فى شعرهم غيرُ شأنِ الذين حُرِموا هذه الراحة وذلك النعيم بسبب اختلاف المؤثرات المادية الواقعة على نفسياتهم .

فهؤلاء المترفون من قريش الذين تحدثنا عنهم فى الحياة الاجتماعية كان شعرُهم صَدى حياتهم المترفة وثمرةً مباشرة لما نعموا به . وكان يقابلهم فى الصحراء رجالٌ لم ينعموا بدنياهم نعيمَهم ، فاصطبغ غزلهم بصبغة حزينة ، وكأنهم يستمدون من مَعِين للحرمان ، ولا شك فى أنه دخلت فى شعرهم تأثيرات روحية من الإسلام ، ولكن لا شك أيضًا فى أنه كان للتأثيرات الاقتصادية نتائج مهمة فى نفوسهم ، فما حياة الفرد التى نشاهدها فى أغلب صورها إلا ملاءمة بينه وبين الطاقة الاقتصادية التى يستطيعها ، والتى يعيش ويتحرَّك داخلها ، فهى التى ترسم له خطوط هذه الحياة ومباهجها أو متاعسها .

ونحن إذا تأملنا فى ظواهر الحياة لهذا العصر الأموى وجدنا الجانب الاقتصادى

---

(١) أغانى ٤/٤٢٢ وما بعدها .

يتغلغل فى صميم كل ظاهرة منها حتى الاتجاهات الروحية فى الأفراد يمكن أن تعلَّل من بعض جوانبها بعلل اقتصادية ، وإذا كان المال والترف هما اللذان أثمرا فى نهاية هذا العصر الوليدَ بن يزيد شاعرَ الخمريات ، فمما لا شك فيه أن البؤس والفقر يدفعان فى كثير من الأحوال إلى الكَبْت ، وقد ينتهيان بالإنسان إلى الزهد فى متاع الدنيا والتعلق بالنسك والعبادة .

ونَدَعُ الجانب الروحى إلى الجانب السياسى فهل من شك فى أن كثيرًا ممن تبعوا الأمويين ، ونظموا شعرهم فيهم ، إنما تبعوهم حبًّا فى أموالهم وطلبًا لدنياهم ؟ . ونفس الذين خاصموهم من زُبَيْر بين وخوارج وشيعة إنما كانوا يخاصمونهم — فى أغلب الظن — حُبًّا لما فى أيديهم من مال ودُنْيا يريدون أن يتحولا إليهم . فى الظاهر أحزابٌ سياسية ، وفى الباطن دوافعُ ومحركات اقتصادية .

فالعامل الاقتصادى كان له أثره العميق فى حياة الناس والشعراء فى أثناء هذا العصر كما هو دائمًا فى كل عصر ، ويستطيع الإنسان أن يلاحظ أثره فى جميع جوانب الشعر الأموى ، حتى فى الشعر الحماسى الذى كان يُنْظَم فى الفتح والجهاد فى سبيل الله ، فإنه لم يَخْلُ هو الآخر من أثر مادى اقتصادى ، فهذا نَهارُ بن تَوْسِعَة يقول فى رثاء المهلَّب قائد الجيوش فى خُراسان[1] :

ألا ذَهَبَ الغَزْوُ المقرِّبُ لِلغِنَى ... وماتَ النَّدَى والجودُ بعد المهلَّبِ

وليس معنى ذلك أن العرب لم يفتحوا الفتوح إلا من أجل المال وجمع الثروات ، فقد كان الدِّين لا يزال غَضًّا فى نفوسهم ، ولا تزال النزعة الروحية أقوى فيهم من النزعة المادية ، ولكن المادة على كل حال كان لها تأثير قليل أو كثير فيهم .

ونحن لا نستطيع أن نَفْصِل فى هذا العصر أىّ جانب من جوانب الحياة عن المادة ، فهى تتعمق فى كل شىء . ومما لا ريب فيه أنها أصبحت أقوى أثرًا وأبعد عملا فى حياة العرب فى أثناء هذا العصر مما كانت عليه فى حياتهم الجاهلية ، فقد خرجوا إلى المدن واتسعت بهم ضرورات الحياة . وفرق بين رجل البادية ورجل المدينة فى المطالب اليومية لحياته ومعيشته .

---

(١) طبرى ٢/١٠٨٤ .

ومن أهم ما يلاحظ في هذا الصدد من تَغَيُّرٍ أن شعر الحماسة القديم لم يعد اللونَ الغالبَ في الشعر العربي ، فقد تطورت الحياة واختلفت ، اختلف مصبُّها واختلف منبعها ، وأصبح المديحُ أهمَّ لونٍ بارز في لوحة الشعر لسبب بسيط هو اتساع ضرورات الحياة العربية الجديدة .

وكانت دمشق وأموالها مفزعَ الشعراء من أقصى البوادي إلى أقصى الحواضر ، فهم يَشُدُّون إليها الرِّحال من الحجاز والعراق ، يستميحون خلفاءها بهذه الطرائف من مدائحهم ، ويعودون من عندهم بُحْرَ الحقائب قد ملأوها بالعطايا الجزيلة . ومن خير ما يصور ذلك قولُ جرير يمدح عبد الملك بن مروان على لسان زوجه أمّ حَزْرة(١) :

تعزَّتْ أمُّ حَزْرَةَ ثم قالت رأيتُ الواردين ذوى لِقاحِ(٢)
تعَلِّلُ وهْىَ ساغبةٌ بَنيها بأنفاسٍ من الشَّبِمِ القَرَاحِ(٣)
ثِقى بالله ليس له شريكٌ ومن عند الخليفة بالنجاح
أغِثْنى يا فداكَ أبى وأمِّى بسَيْبٍ منك إنك ذو ارتياحِ(٤)
سأشكرُ إن رددتَ علىَّ رِيشى وأنبتَّ القوادِمَ فى جناحى

فهو يعلن على لسان زوجته حاجته الملحة إلى المال . ويَرْوى الرواة أن عبد الملك قال له هل تُرويها مائة لِقْحة ؟ وأمر له بها وبثمانية من الرِّعاء(٥) . ومثل هذا العطاء هو الذى كان يَسيل له لُعاب الشعراء ، فكانوا يقفون فى صفوف بنى أمية . ومَنْ كان منهم معارضًا كان يجرُّه مال بنى أمية جرًّا ، فابنُ قيس الرقيات وكُثَيِّر والطِّرِمَّاح لم يكونوا يجدون بأسًا فى مدح بنى أمية ، ما دام مدحهم يملأ حجورهم بالمال .

وعلى هذه الشاكلة ولنفس السبب تعلَّق الشعراء بمديح ولاة بنى أمية ، فكان جريرٌ شاعرَ الحجاج قبل أن يكون شاعرَ عبد الملك . وكان زياد بن أبيه ، وابنه عبيد الله ، وبشر بن مروان ، وخالد القَسْرى ، يَصِلون الشعراء ويُسْبِغون عليهم

(١) الديوان ص ٩٧ .
(٢) اللقاح : جمع لقحة ، وهى الناقة الحلوب .
(٣) تعلل : تشغل وتلهى ، الشبم : البارد ، القراح : الصافى .
(٤) السيب : العطاء
(٥) أغانى ٨/٦٨

عطاياهم ، وفيهم وفى أمثالهم يقول ذو الرُّمَّة[١] :

وما كان مالى من تُراثٍ وَرِثْتُهُ ولا دِيَةٍ كانَتْ ولا كَسْبِ مَأْثَمِ
ولكنْ عطاءُ اللهِ من كلِّ رحْلَةٍ إلى كلِّ محجوبِ السُّرادِقِ خِضْرِمِ[٢]

فذو الرُّمَّة وغيرُ ذى الرمة من الشعراء كانوا يُشْرُون من عطاء الولاة . وقد امتلأت دواوين هذا العصر بمدائحهم ، واشتهر بعضهم بلزومه لوالٍ خاص . وبنفس الصورة كانوا يلزمون القوَّاد ، وقد أشادوا إشادة رائعة بالمهلَّب قائد الجيوش الأموية ضد الترك فى خراسان ، كما أشادوا بأبنائه وخاصة يزيد . وكان المهالبة فى دولة بنى أمية ، كما كان البرامكة فى دولة بنى العباس ، مَضْرِبَ المثَل فى الجود والكرم ، وفيهم يقولُ بُكَيْر بن الأخْنَس[٣] :

نزلتُ على آل المهلَّب شاتيًا فقيرًا بعيدَ الدار فى سَنَةٍ مَحْلِ
فما زال بى إلطافُهم وافتقادُهُم وإكرامهم حتى حسبتهمُ أهْلِى

وقال فى كلمة له أخرى[٤] :

وقد كنت شيخًا ذا تجارب جَمَّةٍ فأصبحت فيهم كالصبىِّ المدلَّلِ

وفى كل مكان من مدائح هؤلاء الشعراء للقواد والولاة والخلفاء نجد إشادة بالكرم . والتغنى بالكرم قديم منذ الجاهلية ، ولكنه أخذ يتسع فى هذا العصر بحكم ضرورات الحياة العربية ، وما كانت تستلزمه من مال .

وإذا كانت الجاهلية قد اشتهرت بحاتم الطائى الذى ضُرِبَت الأمثال بكرمه وجوده فإن عصر بنى أمية أخذ يكثر فيه هؤلاء الأجواد الكرماء ، وقد رَفَدتهم الفتوح والغزوات بما يشاءون من الأموال ، فأغدقوها على الشعراء ، يطلبون حُسْن الذكر والأحدوثة . وفى (المحبَّر) لابن حبيب ثَبَتٌ طريف بأجواد العرب فى الإسلام[٥] . وأول ما يلاحَظ على هذا الثبت كثرة الأجواد فى الإسلام بالقياس إلى

---

(١) الديوان ص ٦٣٣ .
(٢) الخضرم : الكثير الخير .
(٣) بيان ٣/٢٣٣ .
(٤) بيان ٣/٢٣٤ .
(٥) المحبر لابن حبيب (طبع حيدر آباد) ص ١٤٦ .

الجاهلية ، وهذا طبيعى لكثرة الأموال التى صبَّت فى حجور القوم من جهة ، واتساع ضرورات الحياة على الناس من جهة ثانية . ومن هؤلاء الأجواد عبد الله بن جعفر بن أبى طالب أشهر أجواد الحجاز فى عصره ، وقد استنفد مديحه كثيراً من شعر ابن قَيْس الرُّقَيَّات ، وفيه يقول[1] :

أتيناك نُثْنِى بالذى أنت أهْلُهُ   عليك كما يُثْنِى على الروض جارُها
وعندىَ مما خوَّل اللهُ هَجْمَةٌ   عطاؤك منها شَوْلُها وعِشَارُها[2]
إذا متَّ لم يوصَلْ صديقٌ ولم تَقُمْ   طريقٌ من المعروف أنت منارُها

ومن هؤلاء الأجواد أيضًا عتَّاب بن ورْقاء الرِّياحى ، وأسماء بن خارِجَة ، وطلحة الطَّلَحات ، وعِكْرِمة الفياض ، وفيه يقول الأخطل[3] :

وإذا عَدَلْتَ بهِ رجالاً لم تجد   فَيْضَ الفُرَاتِ كراشِحِ الأوْشالِ

ومنهم عمر بن عبيد الله بن مَعْمَر التَّيْمِىّ ، ومحمد بن عُمَير بن عُطَارد التميمى ، وزكريا بن طلحة الفيَّاض ، وقد تخصص بمدحه الأُقَيْشر[4] الأسَدى .

وأسماء هؤلاء الأجواد الممدَّحين تدور دورانًا واسعًا فى شعر هذا العصر الأموى ، فقد كانوا ينثرون أموالهم يمينًا وشمالاً ، فسرعان ما يقصدهم الشعراء ويتخصَّص فريق منهم بجواد مُعَيَّن على نحو ما تخصَّص الأقيشر بزكريا ابن طلحة .

وإذا كان شعراء هذا العصر قد مدحوا الأجواد لجودهم فإنهم ذموا البخلاء لبخلهم . وهذا كله معناه ارتفاع شأن المال فى نفوسهم . ولعل من الطريف أننا نجدهم فى هذا العصر يَذُمُّون بالفقر ، فالغِنى مَجْدُ الأمجاد ، ومن لا يحوزه عُدَّ ذليلا ، ومن هنا يقول جرير فى قوم يذمُّهم[5] :

---

(١) أغانى ٥/٨٠ .
(٢) الهجمة من الإبل : أولها أربعون وتزيد ، والشول : التى أتى عليها من يوم نتاجها سبعة أشهر ، والعشار : التى مضى لحملها عشرة أشهر .
(٣) أغانى ٨/٣٢٠ .
(٤) أغانى (طبع دار الكتب) ١١/٢٥٥ .
(٥) الديوان ص ٢٦٤ .

يُحَالِفُهم فَقْرٌ قديمٌ وذِلّةٌ　　وبئسَ الحليفانِ المذلّة والفقرُ

فالفقر أصبح عيبًا شديدًا من عيوب المجتمع ، وأصبح الشعراء يتهاجون به ، وكأنهم يرون فيه مجمع العيوب ، فمن قلّ ماله حينئذ قلّ حمده ، وصَغُرتْ دنياه ، وصَغُرَ شرفه .

وأخذت تظهر فى بعض العرب آفة جديدة لم يُعْرَفُوا بها فى الجاهلية ، فإن ضرورات الحياة الجديدة فى المدن جعلت قومًا يَحْرِصون على مالهم ، فتعرض لهم الشعراء يهجونهم ، فلم ينصرفوا عن عادتهم ، بل رأيناهم يأخذون موقفًا مقابلا ، فيمدحون البخل ويذمون الكرم . وممن اشتهر فى هذا الاتجاه حُمَيد الأرقط ، وله أهاج مقذعة فى الأضياف [١] . وأبو الأسود الدُّؤَلى وتُرْوَى عنه أقاصيص كثيرة تُصَوِّر بُخْلَه ، وكيف كان يُعْلِنه ، ويدعو له ، ويثنى عليه ، ومن قوله فيه [٢] :

يلوموننى فى البخل جَهْلاً وضَلّةً　　وَلَلْبُخْلُ خيرٌ من سؤال بخيلِ

وإذا كان المال قد كوّن هذه الجماعة من البخلاء الأشحّاء فإنه كوّن جماعة أخرى من الصعاليك الذين يتخذون إظهار الفقر والتصعلك وسيلتَهم إلى طلب المال من الأجواد . ومن أشهر مَن احترفوا هذه الوسيلة الحكم بن عَبْدَل الكوفى [٣] ، ومن طريف ما يُرْوَى له قوله [٤] :

يا أبا طلحة الجوادَ أغِثْني　　بسِجالٍ من سَيْبِك المقسومْ

أحْيِ نَفْسِي فَدَتْك نفسى فإنى　　مُفْلِسٌ قد علمتَ ذاك عديمْ

ليس لى غَيْرُ جَرّةٍ وأصِيصٍ　　وكتابٍ منمنَمٍ كالوشومْ

وإكافٍ أعارنيه نشيطٌ　　هُوْ لحافٌ لكل ضيفٍ كريمِ [٥]

وهو على هذا النحو فى شعره يتصعلك ، ويصف ما فى داره من حشرات وجُرْذان ، وكيف بَنَى العنكبوت فيها بيوته ليظهر بؤسه وفقره ، ويُضْحِك

---

(١) ابن عبد ربه ٣/٣٢٣ .
(٢) ابن عبد ربه ٣/٣٢٨ .
(٣) انظر ترجمته فى الأغانى (طبع دار الكتب) ج ٢ ص ٤٠٤ .
(٤) الحيوان ٥/٢٩٧ .
(٥) الإكاف : البرذعة. وهو بالسكون لغة فى هو.

ممدوحه ، وكأنه كان مقدمة للأدباء الصعاليك الذين ظهروا فى القرن الرابع للهجرة[١].

وهكذا لوَّنت المادةُ الشعرَ فى عصر بنى أمية ألوانًا مختلفة ، وأكثرُ هذه الألوان جاء من تطور حياة القوم الجديدة فى المدينة واختلافها عن حياة آبائهم فى الجاهلية ، وما اتصل بهذه الحياة الجديدة من ضرورات العيش . وفى كتب الأدب قطعٌ تشتمل على حوار طريف بين الشعراء وزوجاتهم عن المال الذى يملكونه ، واستمعْ إلى أعْشَى هَمْدَان يقول[٢] :

قالت تُعاتبنى عِرْسِى وتسألنى ... أينَ الدراهمُ عَنَّا والدنانيرُ
فقلتُ أنفقتُها واللهُ يُخْلِفُها ... والدهرُ ذو مرَّةٍ عُسْرٌ ومَيسورُ
إن يرزقِ اللهُ أعدائى فقد رُزِقَتْ ... من قبلهم فى مراعيها الخنازيرُ
قالتْ فرزْقُك رزقٌ غير مُتسعٍ ... وما لديكَ من الخيرات قِطْمِيرُ
وقد رَضِيتَ بأن تَحْيا على رَمَقٍ ... يومًا فيومًا كما تَحْيَا العصافيرُ

وكان العرب فى الجاهلية يستطيعون أن يحيوا حياةَ العصافير هذه التى تشير إليها زوجُ أعشَى هَمْدَان يغْدون خِماصًا ويروحون بِطانًا ، يطلبون رزقهم أحيانًا ، ويقع لهم رزقهم من غير طلب أحيانًا ، أما اليوم فى عصر بنى أمية فلا يستطيع شخص أن يحصل على قوته بدون طلبه واحتياله فى الطلب ، فإما أن يغدو خَميصًا جائعًا ويروح خميصًا جائعًا ، وإما أن يغدو شَبِعًا بطينًا ويروح شبعًا بطينًا ، فليس هناك توسط ، وليس هناك رزق يأتى من حيث لا يَحْتَسِب الشخص ، والحياة لا تَرْحَمُ ، أو قل إن حياة المدن لا ترحم ، فإما أن تجد المال فتعيش ناعمًا هادئ البال ، وإما أن لا تجده فتعيش شقيًّا محرومًا .

ومن هنا ارتفع صوت المال فى القصيدة الأموية ، واحتلَّ جوانب غير قليلة منها ، فقد كان أساسيًّا فى حياة الناس ، فطبيعى أن يكون أساسيًّا فى فنهم وشعرهم . أليس دعامة هامة من دعائم الحياة ؟ فلِمَ لا يكون دعامة هامة من دعائم البناء الفنى ؟ إنه يستقر فى قاع الحياة وقاع الشعر ، لأن الشعر إنما هو تعبير عن الحياة .

---

(١) انظر الفن ومذاهبه فى النثر العربى (طبع دار المعارف) ص ٢٤٨ وما بعدها .
(٢) حيوان ٦٢/٧ .

ولم يُعَبِّر الشعر الأموى عن المال والمادة والحياة الاقتصادية من الوجهة العامة فحسب، وإنما عبَّر أيضًا عن النظم الاقتصادية الموضوعة، وكان قد دخلها اضطراب كثير فى هذا العصر، فمن جهة كثرت الإقطاعات للولاة والعمال وزعماء العرب[١] ومن جهة فُرِض على الناس كثير من الضرائب الاستثنائية، وكان الولاة يَتَفَنَّنُون فى ذلك، فتارة تُفْرَضُ باسم أجور عُمَّال الخراج، وتارة تفرض باسم نفقات العقود وسَكِّ النقود وغير ذلك[٢].

ومن خلال هذه الضرائب الاستثنائية كان ينفذ الولاة إلى جمع الأموال والثروات ويكفى لتصور ما كانوا يجمعونه لأنفسهم أن نعرف أن الحجاج حين صرف المهلَّب عن الأهْوَاز إلى خُرَاسان كان عليه لبيت المال ألف ألف درهم[٣]. ولما عُزِل يزيد بن المهلب عن خراسان كان عليه لبيت المال ستة آلاف ألف درهم[٤]، وفى بعض الروايات أن شخصًا يسمى مُقاتل بن مِسْمَع وَلِىَ سِجِسْتان، فأتاه الناس، فأعطاهم الأموال، فلما قدم البصرة بسَطَ الناس له أرديتهم، فمشى عليها وقال: لمثل هذا فليعمل العاملون. وقد بلغ راتب خالد القَسْرى نحو عشرين ألف ألف درهم؛ بينما كان ما يأخذه لنفسه يزيد على مائة ألف ألف. ولما ولى يوسف بن عمر الثقفى بعده حبسه هو وثلاثمائة وخمسين من عماله وموظفيه، واستخرج منهم سبعين ألف ألف[٥].

ويظهر أن هذه الحال بدأها العمال وولاة الخراج فى عصر مُبَكِّر فنحن نجد شاعرًا فى عهد عمر بن الخطاب يسمى يزيد بن الصَّعِق، يُرْسِلُ إليه بشكوى من الولاة، وخاصة القائمين على الخراج، وفيها يقول[٦]:

نؤوبُ إذا آبوا ونَغْزُو إذا غَزَوْا فأنَّى لهم وَفْرٌ ولسنا أولى وَفْرِ
إذا التاجر الدارىُّ جاء بفارة من المسك راحتْ فى مفارقهم تَجْرِى[٧]

فهو يلاحظ عليهم ثراءً حادثًا، بل يلاحظ عليهم ترفًا، لا يجده لغيرهم

(١) فى فتوح البلدان للبلاذرى ص ٣٦١ وما بعدها فصل طريف عن إقطاعات البصرة وما أعطى منها لزعماء العرب وولاة العراق.
(٢) انظر الطبرى ٢/١٣٦٦ وما بعدها.
(٣) طبرى ٢/١٠٣٤.
(٤) طبرى ٢/١٢١٣.
(٥) يعقوبى ٢/٣٥٥ وكذلك ٢/٣٨٨.
(٦) فتوح البلدان ص ٣٨٤.
(٧) الفارة: نافجة المسك.

من عامة الناس . وإذا تقدمنا إلى العصر الأموى اتسعت هذه الظاهرة ظاهرة ثراء الولاة وعمال الخراج مما يجمعون من الأموال . وفى ديوان جرير والفرزدق وغيرهما من شعراء هذا العصر شكوى كثيرة من جُباة الخراج وما يتبعون من عَسْف وظلم فى استخراج المال من الناس . ونجد شاعرًا يسمى أنَس بن أبى أُناس يقول لحارثة ابن بدر الغُدانى صاحب زياد بن أبيه حين وَلِىَ على سُرَّق ، وهى إحدى كوَر الأهْوَاز [١] :

أحارِ بن بَدْرٍ قد وليتَ إمارةً ... فكن جُرَذًا فيها تخونُ وتَسْرِقُ
وباهِ تميمًا بالغِنَى إن للغنَى ... لسانًا به المرء الهَيُوبَةُ يَنْطِقُ
ولا تَحْقِرَنْ يا حار شيئًا أصبْتَهُ ... فحظُّك من مُلْكِ العراقين سُرَّقُ

وكأنما أصبحت الولاية على الكُوَر والمدن فى رأى الناس الثَّراء وجمع الأموال حتى يصبح المرء غنيًّا ، فللغنى كما يقول الشاعر لسانٌ يغطِّى على عيوب الإنسان ! ويُرْوَى أن حارثة سمع هذا الشعر فقال : لا يَعْمَى عليه الرشد ، وكأنه رأى فى قوله هُدًى أراده له ! . . وهناك وثيقة طريفة عن عمال العراق وأصحاب الخراج فى عصر ابن الزبير ، وما نقصوا الناس من ثمرات ، فقد كتب ابن هَمَّام السَّلولى أحد الشعراء شكوى طويلة فيهم إلى ابن الزبير ، وهى تَجْرِى على هذا النمط [٢] :

يا ابنَ الزبير أمير المؤمنين ألم ... يبلغك ما فَعَل العُمَّالُ بالعَمَلِ
باعوا التِّجارَ طعامَ الأرض واقتسموا ... صُلْبَ الخراج شِحاحًا قسمة النَّفَلِ
وفيك طالبُ حقٍّ ذو مرانيةٍ ... جَلْدُ القُوى ليس بالوانى ولا الوَكِلِ
اشْدُدْ يديك بزيدٍ إن ظفرت به ... واشْفِ الأرامل من دُحْرُوجة الجُعَلِ [٣]
إنا مُنينا بضَبٍّ من بنى خَلَفٍ [٤] ... يرى الخيانة شربَ الماء بالعَسَلِ
خُذِ العُصَيفير [٥] فانتف ريش ناهضه ... حتى ينوءَ بشرٍّ بعد مُقْتَبَلِ

(١) الشعر والشعراء ص ٤٦٢ وانظر الحيوان ٣/١١٦ .

(٢) الجزء الخامس من أنساب الأشراف (طبعة بيت المقدس) ص ١٩١ وما بعدها .

(٣) دحروجة الجعل : عامر بن مسعود اللى ولى الكوفة لابن الزبير ثم عزله . وزيد : مولى لعتاب بن ورقاء وكان خازن دحروجة الجعل .

(٤) هو دحروجة الجعل السابق .

(٥) العصيفير : عبد الله بن أبى عصيفير والى المدائن .

وما أمانةُ عتّابٍ(١) بسالمةٍ — لا غَمزَ فيها ولكن جمّةُ السُّبُلِ
وقيسُ(٢) كِنْدةَ قد طالت إمارته — بسُرّةِ الأرض بين السهل والجبلِ
وخذ حُجَيْراً(٣) فأتبِعْهُ محاسبةً — ومن عَذَرْتَ فلا تعذر بني قَفَلِ(٤)
ما رابني منهمُ إلا ارتفاعهمُ — إلى الخبيص عن الصَّحْناة(٥) والبصلِ
وما غلامٌ على أرض مسالمةٍ — كمن غزا دَسْتَبَنَّى(٦) غير مُجتعِلِ
يُجبَى إليه خراجُ الأرضِ مُتّكِئاً — مستهزئاً بغناء القَيْنةِ الفُضُلِ(٧)
والوالبيّ(٨) الذي مهرانُ(٩) أمَّرَهُ — فزال مهرانُ مذموماً ولم يَزُلِ
ودونك ابنَ أبي عُشٍّ(١٠) وصاحبَه(١١) — قبل السُّبيع فقد أجرى على مهلِ
لا تجعلنّ [مال] بيت المال مأكلةً — لكل أزرقَ من هَمْدانَ مكتحِلِ
ومنقذُ بن طريفٍ من بني أسدٍ — أُنبِئتُ عاملَهم(١٢) قد راح ذا ثِقَلِ
وما أُخَيْنِسُ(١٣) جُعْفِيٌّ بمانعِهِ — من المتاع قيامُ الليل بالطُّوَلِ
وآخران من العمّال عندهما — بعضُ المنالة إن ترفقْ بها تَنَلِ
محمدُ(١٤) بن عُمَيرٍ والذي كذبتْ(١٥) — بكرٌ عليه غداةَ الرَّوْعِ والوَهَلِ
وما فراتٌ(١٦) وإن قيل امرؤ وَرِعٌ — إن نال شيئاً بذاك الخائفِ الوَجِلِ
والحارثيُّ(١٧) سيرضى أن تقاسمه — إذا تجاوزتَ عن أعماله الأُوَلِ
وادعُ الأقارعَ فاقرعْهم بداهيةٍ — واحمل خيانة مسعودٍ(١٨) على جَمَلِ

---

(١) هو عتاب بن ورقاء الرياحي الجواد المشهور .
(٢) يريد قيس بن يزيد بن عمرو بن شراحيل الكندي .
(٣) يريد حجير بن حجار بن الحر ، كان على الزوابي .
(٤) بنو قفل : من تيم بن ثعلبة وكانوا على صدقات بكر .
(٥) الصحناة : طعام يتخذ من صغار السمك .
(٦) دستبى : كورة كبيرة فى فارس بين الري وهمذان .
(٧) القينة الفضل : التي تلبس ثوباً واحداً كأنها مبتذلة .
(٨) يريد سعيد بن حرملة بن الكاهل الوالبي .
(٩) مهران : مولى لزياد وهو الذي جعل الوالبي في عداد العمال .
(١٠) كان ابن أبي عش هذا واليا على الدينور .
(١١) هو عبد الرحمن بن سعيد بن قيس الهمداني .
(١٢) يريد نعيم بن دجاجة ، وكان على أسفل الفرات .
(١٣) هو زحر بن قيس ، وقيل هو محمد بن أبي سبرة وكان على جوخى .
(١٤) يريد محمد بن عمير بن عطارد أحد أجواد العراق المشهورين .
(١٥) هو يزيد بن رويم .
(١٦) يريد فرات بن زحر ، قتله المختار يوم السبيع .
(١٧) يريد السري بن وقاص وكان على نهاوند .
(١٨) مسعود هذا من بني أسد .

كانوا أتَوْنا رجالا ، لا رِكاب لهم ... فأصبحوا اليوم أهْلَ الخيل والإبلِ
لن يُعْتِبُوك ولما يَعْلُ هامَهم ... ضَرْبُ السياط وشَدٌّ بعدُ فى الحُجُلِ(١)
إن السياط إذا عَضّتْ غَواربَهم ... أبْدَوْا ذخائرَ من مالٍ ومن حُلَلِ

ويخيل إلى الإنسان أن ابن هَمّام لم يترك واليًا من الولاة الزبيريين المهمين فى العراق إلا حشده فى هذا الثبت ، فهؤلاء العمال جميعًا لا يُوَفّون الأمانة حقّها إلا غصبًا واحتيالا على اقتطاع أموال الناس .

وكما شكا ابن همام من عمال الخراج شكا من عمال الصدقات ، فقد شكا من بنى قفل الذين كانوا على صدقات بَكْر بن وائل . وفى كتب الأدب نصوص كثيرة يشكو فيها بَدْوُ نَجْد من المشرفين على صدقاتهم . وهناك وثيقة مهمة قدمها الراعى الشاعر المعروف إلى عبد الملك بن مروان ، وضمّنها شكوى مُرّة ، وقد كتبها بلسان قومه من بنى نُمَيْر ، وفيها يقول(٢) :

أبْلِغْ أميرَ المؤمنين رسالةً ... تشكو إليك مَضَلّةً وعَويلا
أخليفةَ الرحمنِ إنا معشرٌ ... حنفاءُ نَسْجُدُ بُكْرَةً وأصيلا
عَرَبٌ نرى لله فى أموالنا ... حقَّ الزّكاةِ منزّلاً تنزيلا
إن السعاة عَصَوْكَ يوم أمرتَهم ... وأتوا دواهيَ لو علمتَ وغُولا
أخذوا العَريفَ فقطّعوا حَيْزُومَه ... بالأصْبَحيّة قائمًا مغلولا(٣)
حتى إذا لم يتركوا لعظامه ... لَحْمًا ولا لفؤاده مَعْقُولا
جاءوا بِصَكّهمُ وأحْدَبَ أسْأرَتْ ... منه السياطُ يَراعَةً إجْفيلا(٤)
أخذوا حَمُولته وأصبح قاعدًا ... لا يستطيع عن الديار حَويلا(٥)
يدعو أميرَ المؤمنين ودونه ... خَرْقٌ تجرُّ به الرياحُ ذيولا(٦)
كهُداهدٍ كَسَرَ الرماةُ جناحَه ... يدعو بقارعة الطريق هَديلا
أخليفةَ الرحمنِ إن عشيرتى ... أمسى سَوامُهمُ عِزِينَ فُلولا(٧)

(١) الحجل : جمع حجل وهو القيد .
(٢) انظر جمهرة أشعار العرب لأبى زيد القرشى (طبع المطبعة الرحمانية) ص ٣٥٥ وقد أصلحنا النص فى غير موضع .
(٣) العريف : شيخ القبيلة . الحيزوم : الوسط ، الأصبحية : السياط .
(٤) الصك : الصحيفة الخاصة بالصدقات ، الأحدب : العريف . أسأرت : أبقت ، اليراعة : الجبان ، وكذلك الإجفيل .
(٥) الحمولة : ما يحمل عليه من الدواب ، حويلا : تحويلا .
(٦) الخرق : الفلاة .
(٧) السوام : الإبل ترعى . عزين : متفرقة من هزالها .

قَوْمٌ على الإسلام لما يَمْنَعُوا ماعونَهم (١) ويُضَيِّعوا التهليلا
قطَعوا اليمامةَ يُطْرَدون كأنهم قومٌ أصابوا ظالمين قَتيلا
يَحْدُون حُدْبًا مائلاً أشْرافُها في كل مَقْرَبة يَدَعْن رَعيلا (٢)
شهْرَىْ ربيعٍ ما تذوق لَبُونُهم إلا حُموضًا وَخْمَةً وذَبيلا (٣)
وأتاهمُ يحيى فشدَّ عليهمُ عَقْدًا يراهُ المسلمونَ ثقيلا (٤)
كُتُبًا تركْن غنيَّهم ذا عَيْلَة بعد الغِنَى وفقيرَهم مهزولا (٥)
إن الذين أمرتهم أن يَعْدلوا لم يفعلوا مما أمرت فَتيلا (٦)
أنت الخليفة عَدْلُهُ ونَوَالُه وإذا أردت لظالمٍ تَنْكيلا
فادْفَعْ مظالمَ عيَّلَتْ أبناءنا عنا وأنْقِذْ شِلْوَنا المأكولا (٧)
فنرى عطيَّةَ ذاك إن أعطيته من ربنا فضلا ومنك جزيلا

فالراعي يستغيث ويستنجد بعبد الملك من عمال الصدقات وما يصبُّون على قومه من أسواط العذاب ، فهذا العريف نكَّلوا به شر تنكيل ، فقطعوا حيزومه ؛ وأخذوا ناقته التي تحمله ، وبقي لا يملك شرْوَى نَقير ، وهو مُلْقًى هناك كهدهد كُسر جناحه ، يصيح ويصرخ ، ولا يجد من يرقُّ له غير هؤلاء الظالمين من عُمَّال الصدقات . ويقول الراعي إننا حُنَفاء نسجد بُكْرَةً وأصيلا ، وندفع حق الزكاة لأنه منزل في القرآن الكريم تنزيلا ، إلا أن قَحْطًا عظيمًا أصابنا ، ومع ذلك فيحيي وأصحابه يتشدَّدون فيفرضون علينا صدقات ثقيلة لا نستطيع أداءها . والقطعة في مجموعها صُرَاخ وشكوى وعَويل .

وإذا كان هذا يحدث في نَجْد وبين البدو من العرب فما كان يحدث في ريف العراق من العَسْف والظلم في جمع الخراج كان أشدَّ وأحدَّ ، ويكفي أن الموالي اضطرّوا إزاء ذلك أن يهاجروا من الريف إلى المدن ، مما جعل الخراج يَسْقُطُ في عهد الحجاج من ١٢٠ ألف ألف إلى ٢٥ ألف ألف (٨) .

---

(١) الماعون : الزكاة .
(٢) الحدب : الإبل ، الأشراف : الأسنمة. المقربة : الطريق في الجبل. الرعيل : القطيع . يريد أنها من ضعفها تنقطع وهي سائرة .
(٣) اللبون : الناقة ذات اللبن . الذبيل : اليابس .
(٤) العقد : ما كتبه عليهم من الصدقات .
(٥) العيلة : الفقر .
(٦) الفتيل مايكون في شق النواة ، يريد أنهم لم يفعلوا شيئاً .
(٧) عيلت : من التعييل ، وهو سوء الغذاء . الشلو : العضو .
(٨) تاريخ اليعقوبي ٢/٣٤٩ .

ويظهر أن هذه الهجرة زادت ، ففزع عمال الخراج إلى الحجاج ، حتى يرجع الموالى إلى ريفهم ، فرسم بأن مَن كان له أصل فى قرية يجب أن يخرج إليها ، يقول الطبرى : «فخرج الناس وعسكروا ، وجعلوا يبكون وينادون : يا محمداه ! يا محمداه ! وجعلوا لا يدرون إلى أين يذهبون[١]» وتذهب الروايات إلى أن الحجاج أمر بوَشْم أيديهم حتى لا يعودوا إلى المدن أبداً[٢] .

ولا شك فى أن هذه المعاملة القاسية كانت سبباً فى كثرة الثورات فى العراق ، فكلما ثار ثائر هناك مثل عبد الرحمن بن الأشعث أو يزيد بن المهلب وجدنا العراقيين يتجمعون حوله ، وخاصة هؤلاء الموالى المظلومين فيما يؤدون من خراج وضرائب استثنائية . فلما وَلِيَ عمر بن عبد العزيز أواخر القرن الأول للهجرة وقف هذا كلّه سواء فى العراق أو فى خُرَاسان أو فى غيرهما من البلدان الإسلامية . وكان مما كتبه إلى عامله فى خراسان هذه الجملة المأثورة : «إن الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم داعياً ، ولم يبعثه جابياً[٣]» . وكتب إلى عامله فى الكوفة أن يلغى الضرائب الاستثنائية ، وأن لا يأخذ إلا الخراج ، فقِوَامُ الدين العدل والإحسان[٤] .

ومع ذلك فيظهر أن عُمَّال عمر بن عبد العزيز أنفسهم لم يستطيعوا أن يسيروا على منهاجه الذى رسمه ، وكأن ما وضعه العمال السابقون من شدة وظلم كان لا يزال عالقاً فى نفوسهم ، أو على الأقل فى نفوس بعضهم ، فنحن نجد طائفة من الشعراء ترفع صُحُفاً إلى عمر بن عبد العزيز تشكو فيها من عُمَّاله ، فهذا كَعْب الأشْقَرِيّ يقول له[٥] :

إن كنت تحفظُ ما يَلِيك فإنما عُمَّالُ أرْضِك بالبلادِ ذئابُ
لن يستجيبوا للذى تَدْعو له حتى تُجَلَّدَ بالسيوفِ رقابُ

ويَرْوِى الرواة أن شاعراً تعرَّض له وهو على المنبر ، فقال[٦] :

---

(١) طبرى ٢/١١٢٢ .
(٢) الحيوان ٧/١٦٥ .
(٣) طبرى ٢/١٣٥٤ .
(٤) طبرى ٢/١٣٦٦ .
(٥) البيان والتبيين ٣/٣٥٨ .
(٦) البيان ٣/٣٥٩ .

إن الذين بعثتَ فى أقْطـارِها نبَذوا كتابَكَ واستُحِلّ المحرَمُ
طُلْسُ الثيابِ على منابر أرضِنا كلٌّ يجورُ وكلهم يتظلمُ(١)
وأردتَ أن يَلِيَ الأمـانة منهمُ عَدْلٌ وهيهـات الأمينُ المسْلمُ

فكعب وصاحبه جميعًا يائسان من أن وصايا عمر الجديدة سينفذها هؤلاء العمال الذين وصلتهم فعلاً وصاياه ، فاستغشوا ثيابهم ، وجعلوا أصابعهم فى آذانهم ، أو قل إن بعضًا منهم صنَع ذلك ، وأصرّ على أن يستمر فى الطريق القديم ، كما يحدثنا الشاعر الثانى الذى اعترض عمر على المنبر ، وقال إن عماله نبذوا كتابه . وتعاهدوا على الجور ، وإن اليأس القاتل ليبلغ منه ، فيقول لعمر إنه لا يوجد عادل فى رعيتك يستطيع أن يحتمل هذه الأمانة .

وأكبر الظن أنه قد اتضح الآن وضوحًا لا لَبْسَ فيه أن الشعر فى عصر بنى أمية مثّل الحياة الاقتصادية من جميع أطرافها وما أصابها من تطوّر ، فهو من جهة صوّر نظم الدولة الاقتصادية وما اعتور تطبيقها من خَلَلٍ واضطراب ، وهو من جهة ثانية صوّر ضرورة المال فى حياة العرب الجديدة ، وهى ضرورة — كما مر بنا — اتسع تأثيرها فى محيط الشعر وخطوطه واتجاهاته .

---

(١) طلس الثياب : يريد أن ثيابهم غير نظيفة .